د. علي الحمادي

في قفص الاتهام

(منهجية التعامل مع الشبهات وقواعد دحضها)

(١)



دار ابن حزم

http://kotob.has.it

بسم الله الرحمن الرحيم

http://kotob.has.it

في قفص الاتهام

(منهجية التعامل مع الشبهات وقواعد دحضها)

(١)

د. علي الحمادي

دار ابن حزم

http://kotob.has.it

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

http://kotob.has.it

الفهرس

الموضوع	الصفحة

http://kotob.has.it

http://kotob.has.it

المقدّمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد. . .

الدعوة إلى الله عز وجل شأنها عظيم، وأثرها جسيم، بها تتحقق عبودية الله عز وجل في أرضه، وبها يمكن الله لدينه وأوليائه، وبها يحق الله الحق ويبطل الباطل، بل بها يرفع الله سخطه وغضبه عن خلقه.

يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

ويقول الإمام ابن القيم: «فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد».

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويبصرون من همَّ على الأذى، يحيون

---

(١) سورة فصلت: الآية ٣٣.

http://kotob.has.it

بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله العمْيَ، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أسوأ أثر الناس عليهم».

أمـــــا لله والإســــــلام حـــــق
يـــدافـــع عـــنـــه شـــبـــان وشـــيـــب
فـقـل لـذوي الـبـصـائـر حـيـث كـانـوا
أجـيـبـوا الله ويـحـكـم أجـيـبـوا

هذه الدعوة تتعرض، وهي تشق طريقها، إلى تحد كبير، وإلى فتن لا تُعد ولا تُحصىٰ، فتارة تُتهم بالنقص والقصور، وتارة تُرمىٰ باستغلال الدين لمصالحها الشخصية، وكثيراً ما تُقذف بالتطرف والإرهاب والرجعية، وأحياناً يجرح أصحابها بالانحراف الفكري أو العقدي أو الحضاري.

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾(١).

هذه التهم، وتلك الشبهات هي أسلحة فتّاكة قصمت ظهر الأمة على مر تاريخها الإسلامي، بل فعلت فعلتها في أفضل جيل، وهو جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وما فتنة علي ومعاوية رضي الله عنهما ومن قبل مقتل ذي النورين عنا ببعيد.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

http://kotob.has.it

إن المسلمين اليوم يعانون الأمر نفسه ولكن بألوان وأساليب أخرىٰ، فاليهود والنصارى وبعض العلمانيين والنفعيين والحاقدين على الدعوة والدعاة يتربصون وينفثون سمومهم بالليل والنهار.

وأحياناً يكون مصدر هذه التهم والشبهات المسلمين أنفسهم، بل وربما بعض الأحبة الدعاة إلى الله تعالى؛ فتعظم المصيبة ويشتد البلاء.

لقد حاولت جمع جوانب هذا الموضوع المتناثرة في مواقع كثيرة ليسهل متابعتها والإلمام بها، كما أنني عمدت إلى اختصار بعض ما كتبه الآخرون وتطويع بعضه الآخر مع الإشارة إلى ذلك في مواضعه، فضلاً عن إضافة ما استحسنت إدراجه إلى هذا الموضوع إتماماً للفائدة.

ونظراً لحاجة الدعوة الإسلامية إلى التأصيل العلمي وإلى المنهجية في الفكر والعمل أكثر من حاجتها إلى العموميات والعواطف، فقد تم التركيز على مسألة أظنها مهمة وهي القواعد والأصول التي يحسن الأخذ بها عند التعامل مع الشبهات.

ولقد تناولت خمساً وستين قاعدة للتعامل مع الشبهات، ولا يعني ذلك أنني استطعت جمع كل القواعد والأصول في هذا الموضوع، ولكنها محاولة أحببت إضافتها في هذا المجال الحيوي والمهم، عسىٰ الله تعالى أن ينفع بها وأن يوفق للأخذ بما فيها، وأسأل الله تعالىٰ الإخلاص والقبول وحسن الختام.

كتبتُ وقد أيقنتُ يوم كتابيَ
بأن يدي تفنىٰ ويبقىٰ كتابها

http://kotob.has.it

فـإن عــمــلــت خـيــراً ســتــجــزى بــمــثــلــه
وإن عــمــلــت ســوءاً عــلــيــهــا حــســابــهــا

قسمت القواعد سالفة الذكر إلى ثلاثة أقسام، كل قسم في كتاب مستقل، وذلك تسهيلاً للقارىء، إذْ إن كثيراً من الناس لا تهفو نفوسهم إلى المجلدات الكبار، وإنما يفضلون الكتيبات الصغار، وقد أطلقت على كل كتاب اسم مختلف عن الكتاب الآخر، وهي كما يلي:

١ ـ الكتاب الأول بعنوان «في قفص الاتهام».

٢ ـ الكتاب الثاني بعنوان «خفافيش أعماها النهار».

٣ ـ الكتاب الثالث بعنوان «ولا تهنوا في ابتغاء القوم».

والآن ندعوكم إلى الكتاب الأول «في قفص الاتهام»، إذْ تُوجه السهام إلى دعوة الله وإلى الصالحين من الدعاة، وتُثار حولهم التهم والشبهات، فكيف نرد على هذه التهم؟ وما هي منهجية التعامل مع هذه الشبهات؟ وما هي قواعد دحضها؟ وكيف نكسر القيد ونُخرج الدعوة من هذا القفص؟

هذا ما سوف أتناوله في هذا الكتاب، مسلطاً الضوء على عشرين قاعدة يحسن الانتباه إليها لتكون منهجاً علمياً يمكن به الرد على الشبهات ودحضها والقضاء عليها بإذن الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

أبو عبدالله

د. علي الحمادي

http://kotob.has.it

مفهوم الشبهة

أولاً - المفهوم اللغوي:

جاء في المعجم الوسيط: «الشُّبْهَةُ: الالتباس، واشتبه الأمر عليه: اختلط، واشتبه في المسألة: شك في صحتها»(١).

ثانياً - المفهوم الاصطلاحي:

«هي ما يثير الشك والارتياب في صدق الداعي وحقيقة ما يدعو إليه؛ فتمنع المدعو من رؤية الحق والاستجابة له، أو تؤخر هذه الاستجابة. كما أنه غالباً ما ترتبط إثارةُ الشبهة بعادةٍ موروثة، أو مصلحة قائمة، أو شهوة دنيوية، أو حميةٍ جاهلية، أو سوء ظن، أو غبش في الرؤية فتتأثر النفوس الضعيفة المتصلة بهذه الأشياء، وتجعلها حجة وبرهاناً تدفع به الحق»(٢).

---

(١) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الدعوة، استانبول، ١٩٨٩، ص٤٧١.

(٢) جاسم مهلهل، للدعاة فقط، دار الدعوة، الكويت، ص٨٩.

http://kotob.has.it

أنواع الشبهات

للشبهات أنواع عدة أهمها أربعة وهي:

١ ـ شبهات تتعلق بعموم الإسلام:

وهي كثيرة، حيث أثيرت الشبهات حول تعدد الزوجات، والحجاب، والرقيق، وحقوق المرأة في الإسلام، وغيرها.

٢ ـ شبهات تتعلق بالداعية:

والذي يتعلق بالداعي يتمثل في الطعن في شخصه وسيرته وسلوكه، وإلصاق التهم به، ورميه بالسفه والجهالة والضلالة والجنون والافتراء إلى غير ذلك مما يكون المقصود منه تنفير الناس منه وعدم الثقة به.

إن الرسول ﷺ اتُهم بأنه مجنون وساحر، واتهم من قبله موسى عليه السلام حيث قال فيه فرعون: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾[١].

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢٧.

http://kotob.has.it

وهكذا العلماء والمصلحون فقد أُثيرت حولهم الشبهات الكثيرة واتُّهموا في عقولهم وأخلاقهم وأعراضهم.

٣ ـ شبهات تتعلق بموضوع الدعوة ومنهجها وأساليبها:

والذي يتعلق بموضوع الدعوة يتمثل في اتهامها بالابتداع والخروج على مألوفات الناس وتقاليدهم ونظامهم الموروث مما يراد به تنفير الناس من الدعوة إلى الله وصدهم عن سبيله.

٤ ـ شبهات تتعلق بالمدعوين:

والذي يتعلق بالمدعوين يتمثل في إظهار الحرص على مصالحهم وملتهم ودين آبائهم والحفاظ على نعيمهم وحياتهم المطمئنة مما يقصد منه إثارة حماس الناس ضد الدعاة إلى الله[1].

(١) عبدالكريم زيدان، أصول الدعوة، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٩٨١، ص٤١١ ـ ٤١٢.

http://kotob.has.it

مصادر الشبهات

يمكن إجمال مصادر الشبهات في أربعة مصادر رئيسة وهي:

أولاً ـ الملأ:

«والغالب أن «الملأ» هم الذين يثيرون الشبهات ويزينونها للناس ويشيعونها فيما بينهم ويكررونها على مسامعهم، حتى تألفها نفوس البسطاء من عامة الناس ويأخذون في ترديدها ثم تصديقها ثم تبنيها واعتبارها كالحقائق الثابتة وعند ذلك يندفعون إلى الدفاع عنها ومخاصمة الحق وأهله من أجلها، والملأ منهم يضحكون ويسخرون فقد حققوا ما يريدون»[١].

ثانياً ـ المخالفون من الدعوات الأخرى:

إذ إن هناك نفوس مريضة في كثير من الدعوات لا هَمَّ

---

(١) عبدالكريم زيدان، أصول الدعوة، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٩٨١، ص٤١٠.

http://kotob.has.it

لها إلا تتبع عثرات أصحاب الدعوات الأخرىٰ والتشهير بهم وإثارة الشبهات حولهم.

ثالثاً ـ أصحاب الشهوات والمصالح:

حيث يحرص أصحاب الشهوات على إثارة الشبهات حول الصالحين ليبرروا انحرافهم وليستمروا في الحصول على شهواتهم وليلتفت الناس إلى غيرهم فيتهموا سواهم.

رابعاً ـ المصادر الخارجية:

أي من خارج هذه الأمة من اليهود والنصارى والعلمانيين والشيوعيين وغيرهم.

http://kotob.has.it

أهداف مروِّجي الشبهات

لمروِّجي الشبهات ومثيري الاتهامات أهداف متعددة ومتنوعة تختلف باختلاف طبيعة صاحبها ومدى صدق طويته، ومقدار علمه وتربيته، وسعة ذكائه وفطنته، فمنهم:

١ ـ **من يظن أن بفعله هذا إنما ينصر الحق وأهله ويفضح الباطل وأهله**، فهو ـ فيما يعتقد ـ يمارس واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا وإن أخطأ الأسلوب فإنه يبقىٰ في دائرة الخطأ والصواب، ولا يجوز أن يُطعن في نيته وقصده.

٢ ـ من يريد بترويج الشبهات **إظهار نفسه** وإبراز شخصه ليشار إليه بالبنان وليكون رمزاً للعيان وليرتفع شأنه بين الناس، فهذا إنسان لم يخلص العمل للّه، ويخشى أن يحبط الله عمله وأن يجعله عبرة لمن يعتبر.

٣ ـ من يلجأ إلى ترويج الشبهات **ليعلو حزبه أو تظهر جماعته** أو ترتفع فئته على حساب الآخرين، فهم متطفلون

http://kotob.has.it

كالذباب الذي لا يعيش إلا في المستنقعات، ولا يقع إلا على القاذورات، فهؤلاء سيتكفل بهم الله الذي حفظ دعوته من أمثالهم، وأنىٰ ليدِ شلاء أن تحجب الشمس أو تخفي ضوء القمر.

٤ ـ من يثير الشبهات لا لشيء **إلا للمتعة والتلذذ**، فهم مرضىٰ يحسن بهم أن يعالَجوا في المصحات النفسية والعصبية.

٥ ـ وآخرون هم **أعداء الإسلام من يهود ونصارى وعلمانيين** وغيرهم، فهؤلاء قامت دعواتهم لتدمير الإسلام وأهله، فهدفهم الرئيس هو القضاء على كل مظهر من مظاهر الدين، ولذلك فهم يلجأون دائماً إلى إثارة هذه الشبهات.

http://kotob.has.it

إثارة الشبهات وقول الحق

يحتج كثير ممن يثيرون الشبهات حول الدعاة إلى الله بأن كلامهم هذا من قول الحق وإنكار المنكر، وهو في الحقيقة ليس كذلك، إذ يقترن بقولهم هذا من المفاسد ما يحتم عدم قولها، هذا أولاً، وثانياً: إن إثارة الشبهات والطعن فيمن سلف أمر مذموم قديماً وحديثاً.

يقول تاج الدين السبكي رحمه الله: «ومنهم فرقة سلمت من جميع ما ذكرناه إلا أنه غلب عليها الطعن في أمة قد سلفت والاشتغال بعلماء مضوا، وغالباً ما يؤتىٰ هؤلاء من المخالفة في العقيدة، فقلّ أن ترىٰ من الحنابلة إلا ويضع من الأشاعرة وهكذا. . .

إذا كان الأئمة المعتبرون كالشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد على أن لا نكفر أحداً من أهل القبلة، فلِمَ هذا التعصب وما لنا لا نسكت عن أقوام مضوا إلى ربهم ولم ندر على ماذا ماتوا؟ وإن يبدو لنا أحد ببدعة قابلناه، وأما الأموات

http://kotob.has.it

فلم ننبش عظامهم، هذا والله لا ينبغي»[1].

ويقول الشيخ عبدالرحمٰن عبدالخالق: «وجدنا من لا همَّ له إلا مشاغلة الدعاة إلى الله والتعرض لهم بالسب والتشهير وتأليف الرسائل في بيان مثالبهم في زعمهم واتهامهم بالمداهنة تارة وبالركون إلى الظالمين تارة وفعل بعض المعاصي تارة والإفتاء بما يخالف آراءهم في الدين تارة.

ولمثل هذه الأمور التي يرونها مخالفات، وما هي بمخالفات، يستحلون أعراضهم، وينتهكون حرماتهم، ويفشون أسرارهم، ولا يجدون لهم ديناً في الأرض إلا تفريق جماعتهم وتمزيق وحدتهم وملء صدور الناس بكراهيتهم ومحاولة فض الناس عنهم، وهذا من أكبر الآثام ومن أكبر النواقض لأصل الإيمان الأصيل وهو أصل الولاء.

ولو فقه هؤلاء الدين لوجب عليهم محبة إخوانهم فيَّ الإسلام والدعاء لهم بظهر الغيب وشد أزرهم والنصر لهم وبذل الأمر بالمعروف بالتي هي أحسن.

ولكن الحقد والبغضاء ملأت صدورهم ونفخ الشيطان في قلوبهم، فتراهم يرون أكبر المنكرات فلا يأبهون، ويشاهدون أعظم الطواغيت فلا يغضبون، ولكنهم يرون الهفوات والصغائر على إخوان العقيدة والدين وأهل الدعوة

---

(١) تاج الدين السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، دار الكتاب العربي، ص٨٧.

http://kotob.has.it

والجهاد فتحمر أنوفهم وتزبد أفواههم ويعددون في كل مجلس مخالفتهم.

وأمثال هؤلاء، الذين ساروا على درب أسلافهم في المروق من قبل حيث تركوا أهل الأوثان ونصبوا العداء لأهل الإسلام، هم أخطر على المجتمع الإسلامي من المنافق المستتر»[1].

ومن هنا فإن إثارة الشبهات وكيل الطعون والاتهامات بحجة قول الحق وإظهاره، فغالباً ما تكون حجة واهية، يزينها الشيطان في عقول ونفوس بعض الناس ليخدعوا بها أنفسهم، ويضلوا بها أمتهم، ويخدموا بها أعداء دينهم، فليت هؤلاء يدركون ذلك، ويفيقوا من غفلتهم قبل فوات الأوان.

---

(١) عبدالرحمٰن عبدالخالق، الولاء والبراء، ص٣٤.

http://kotob.has.it

أصول الرد على الشبهات

يمكن أن يتم الرد على الشبهات التي تثار على الدعوة الإسلامية وعلى الدعاة بالاستناد على أصول ثلاثة رئيسة وهي:

الأصل الأول: الاحتكام إلى الكتاب والسنة

فالأصل الذي يجب ألا يُحاد عنه هو الاحتكام إلى الله عز وجل لأن الله عز وجل أمرنا بذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1].

ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾[2].

فأمرنا الله عز وجل بطاعته وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ثم طاعة أولي الأمر، فإن وقع الاختلاف سواء بيننا

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١٠.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

http://kotob.has.it

وبين ولي الأمر أو فيما بيننا فقط فلا يكون الرد إلا للّه ورسوله[1].

ولهذا يقول الأستاذ حسن البنا رحمه الله في الأصل الثاني من الأصول العشرين التي يشرح بها ركن الفهم: «والقرآن الكريم والسنّة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقاً لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات»[2].

الأصل الثاني: الاحتكام إلى فهم السلف ما لم يخالف الكتاب والسنة:

فكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا المعصوم ﷺ، ولهذا يقول الأستاذ حسن البنا رحمه الله في الأصل السادس من الأصول العشرين في رسالة التعاليم: «وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم ﷺ، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقاً للكتاب والسنة قبلناه، وإلا فكتاب الله وسنّة رسوله أولىٰ بالاتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص فيما اختلفوا فيه بطعن أو تجريح ونكلهم إلى

---

(١) جاسم مهلهل، للدعاة فقط، دار الدعوة، الكويت، ١٩٨٨، ص٩٠ ـ ٩١.

(٢) حسن البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ١٩٨٤، ص٣٥٦.

http://kotob.has.it

نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا»[1].

وبهذا يقول الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله: «وعلى ذلك كل امرىء فيما عدا المعصوم ﷺ يؤخذ من قوله ويرد، فيؤخذ من قوله ما قام البرهان على أنه حق، ويرد من قوله ما لم يقم عليه ذلك البرهان، ونحن حين نستشهد بأقوال السابقين من أئمة الفقه واللغة لا يدور في خلدنا أن الواجب علينا اتباعهم في أي شيء قالوا، ولكننا نحتج بفهمهم وهم أئمة الفقه والعاملون بمختلف أساليب الفقه»[2].

الأصل الثالث: الاجتهاد والنظر إلى الواقع

حيث إن كثيراً من الشبهات تحتاج إلى دراية وعلم بالواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم، فالظروف والأحوال تتغير وتتبدل، لذا يحسن بالمسلم أن يعيش واقعه، كما وينبغي لأهل العلم والفقه والدعوة أن يجتهدوا في أمر دينهم ودعوتهم بعد سبر أغوار واقعهم.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال: «**كيف تقضي إذا عرض لك القضاء؟**» قال: أقضي بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد في كتاب الله؟**»

---

(١) حسن البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص٣٥٧.

(٢) جاسم مهلهل، للدعاة فقط، دار الدعوة، الكويت، ١٩٨٨، ص٩١ ـ ٩٢.

http://kotob.has.it

قال: فبسنّة رسول الله، قال: «**فإن لم تجد في سنّة رسول الله؟**» قال: أجتهد رأيي ولا آلو[1]، قال: فضرب الرسول ﷺ صدره وقال: «**الحمد للّه الذي وفّق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله**»[2].

⁂ ⁂ ⁂

(١) أي لا أقصر في اجتهادي.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٤٢/٣) والبغوي وغيرهما.

http://kotob.has.it

منهجية التعامل
مع الشبهات وقواعد دحضها

فيما يلي سأتناول بإذن الله تعالى بعض القواعد الهامة والأصول الرئيسة التي ينبغي الأخذ بها والتعامل على أساسها في مواجهة الشبهات، وذلك ليتم التخفيف منها أو القضاء عليها أو الحد من آثارها، بخطوات منهجية وأساليب علمية بعيدة عن العواطف التي لا تقوم على علم ولا يؤيدها عقل ولا يسندها منطق.

http://kotob.has.it

١ ـ التنزه عن مواطن الشبهات

إن أقوى وأجدى سلاح يتسلح به الداعية ضد مروِّجي الشبهات أن يتنزه ابتداء عن مواطن الشبهات، إذ الوقاية خير من العلاج، والأولى بالمسلم أن لا يعرض نفسه ولا دعوته إلى موطن شبهة حتى لا يضطر إلى معالجة آثارها التي ترهق الدعوة والداعية أيما إرهاق.

إن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، كما أن الباب الذي يأتيك منه الريح يحسن بك أن تسده لتستريح.

روى الإمام البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه، ومن وقع في الشبهات واقع الحرام، كالراعي حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه**».

وأخرج النسائي والترمذي في السنن والحاكم وصححاه عن الحسن بن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**».

http://kotob.has.it

وروى البخاري ومسلم أن النبي ﷺ كان يسير ومعه الحسن بن علي وكان صبياً، فيأخذ الحسن تمرة على الأرض فيأخذها ويضعها في كيس، فيقول عليه الصلاة والسلام: «**كخ كخ** - وهي كلمة زجر لما يستقذر - **ارم بها علها أن تكون من مال الصدقة**».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام)(١).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: (إن من تمام التقوى أن يتقي العبد في مثقال ذرة، حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً حتى يكون حجاباً بينه وبين النار)(٢).

وكان يوزن بين يدي عمر بن عبدالعزيز مسك للمسلمين، فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة وقال: (وهل ينتفع منه إلا بريحه)(٣).

وجاءت امرأة إلى الإمام أحمد بن حنبل فقالت: إنا قوم نغزل على السطوح، فيمر بنا الحرس حاملي المشاعل، فهل يجوز لنا أن نغزل على ضوئهم؟ نحن لم نستأذنهم في الانتفاع

---

(١) أبي حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج٢، دار قتيبة، بيروت، ١٩٩٢، ص١٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٤.

http://kotob.has.it

بضوئهم فهل يجوز لنا أن ننتفع بضوئهم؟ قال: (مَن أنت رحمك الله؟) قالت: أخت بشر الحافي، قال: (من بيتكم يخرج الورع، لا يجوز يا أختاه)[١].

يقول عبدالكريم زيدان: «وإذا كان أهل الباطل يثيرون الشبهات ويفترون الأكاذيب في وجه الدعوة وضد الداعي، فعلى الداعي أن يبتعد عن مواضع الشبهات حتى لا يتعلق المبطلون بها ويتخذونها تكأة لافترائهم، وقد دلّ القرآن الكريم على ضرورة الابتعاد عما قد يتشبث به أهل الباطل في إثارتهم الشبهات، ومن هذه الدلالات القرآنية:

أولاً: كان رسل الله جميعاً يقولون لأقوامهم: لا نريد منكم على دعوتنا مالاً، ولا أجراً لأن أجرنا على الله وحده، قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ ...﴾[٢] ويقول تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾[٣].

وجه الدلالة في هذه الآية والتي قبلها وغيرها مثلها، أن الرسل الكرام لو طلبوا مالاً أو أجراً على دعوتهم لتعلّق أهل

---

(١) هاشم محمد، في ضوابط السلوك والمنجيات، مكتبة دار البيان، الكويت، ١٩٨٩، ص٦٨.

(٢) سورة هود، الآية: ٢٩.

(٣) سورة سبأ، الآية: ٥٠.

http://kotob.has.it

الباطل بذلك وجعلوه شبهة يثيرونها ليصدوا الناس عن الدعوة والدعاة فيقولون: إن هؤلاء طلاب مال.

ثانياً: قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[١]، ووجه الدلالة أن الله تعالى أبعد رسوله الكريم ﷺ عن تعلُّم الكتابة والقراءة دفعاً لما قد يتشبث به المبطلون فيدّعون أن ما جاء به تعلّمه من كتب قديمة قرأها واستنسخها، بل يمكن القول أن الداعي يترك بعض ما فيه فائدة لدفع ضرر الشبهة الباطلة، لأن تعلُّم القراءة والكتابة فيهما نفع، ولكن دفع ضرر الشبهة الباطلة أكثر نفعاً، فقدم الدفع على هذا النفع.

ثالثاً: وقد قال تعالى عن رسولنا الكريم ﷺ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾[٢]، فمنع الله تعالى رسوله من تعلُّم الشعر وإنشائه حتى لا يكون ذلك وسيلة بيد أهل الباطل يبنون عليها شبهاتهم الباطلة.

والواقع أن الدعاة إلى الله محتاجون أكثر من غيرهم إلى الابتعاد عن كثير من المباح الذي قد يتشبث به أهل الباطل ويجعلونه مثاراً لشبهاتهم وللصد عن سبيل الله.

ولكن يجب التنبُّه لما يجب توقيه دفعاً للشبهة، وما يجب مباشرته لأنه من الدعوة وإن ظنّ أنه من الشبهة، وهذا

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٨.

(٢) سورة يس، الآية: ٦٩.

http://kotob.has.it

موضع دقيق يكثر فيه الخطأ، ويحتاج إلى تفصيل يكفينا منه هنا أن نقول: يسع الداعي أن يترك ما يخص نفسه وحظوظه المباحة دفعاً هنا للشبهة، وقد يجب أو يندب هذا الترك، ولا يسع الداعي أن يترك ما يخص صميم الدعوة أو ما يتصل بها اتصالاً مباشراً، أو يتعلق بنهجها وأسلوبها، فلا يجوز مثلاً ترك دعوة الأمير والدخول عليه لهذا الغرض بحجة دفع شبهة تَقَوُّل الناس أنه من بطانة الأمير أو أنه يداهن الأمير(١).

وأخيراً نذكِّر العلماء والدعاة والصالحين بما روي عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله، إذ كان يسير يوماً فرأى صبياً يلعب بالقرب من الطين فقال: إياك يا صبي والسقوط في الطين، فقال الصبي: بل إياك أنت يا إمام، إياك والسقوط، فإن سقوط العَالِمْ سقوط العالَمْ»(٢).

وصدق الإمام الشافعي حينما قال:

يا واعظ الناس عما أنت فاعله
يا من يُعَدُّ عليه العمر بالنفس
احفظ لشيبك من عيب يدنسه
إن البياض قليل الحمل للدنس

---

(١) عبدالكريم زيدان، أصول الدعوة، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٩٨١، ص٤١٨ ـ ٤٢٠.

(٢) هاشم محمد، في ضوابط السلوك والمنجيات، مكتبة دار البيان، الكويت، ١٩٨٩، ص٦٩.

http://kotob.has.it

كحامل لثياب الناس يغسلها
وثوبه غارق في الرجس والنجس
تبغي النجاة ولم تسلك طريقتها
إن السفينة لا تجري على اليبس
ركوبك النعش ينسيك الركوب على
ما كنت تركب من بغل ومن فرس
يوم القيامة لا مال ولا ولد
وضمة القبر تنسي ليلة العرس[1]

(١) محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الشافعي، جمعه وعلّق عليه محمد عفيف الزعبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣، ص٥١.

http://kotob.has.it

٢ ـ سنة ماضية وشنشنة قديمة متوارثة

لا يليق بالمسلم الفطن أن يظن أن الشبهات التي تتعرض لها الدعوة الإسلامية اليوم هي شبهات محدثة جديدة لم تتعرض لها الدعوة الإسلامية من قبل، كلا وألف كلا، إنه أمر تواصىٰ به أعداء الله وتوارثوه عبر تاريخ البشرية، إذ تكالب الأعداء بالتهم والتجريح، حتى ليصدق قول القائل:

رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال

يقول الأستاذ عبدالكريم زيدان: «وليعلم الداعي أن إثارة الشبهات في وجه الدعوة إلى الله أمر قديم مضت به سنّة الله في العباد، وشنشنة قديمة متوارثة بين أهل الباطل لا يستغرب منها الداعي ولا يضيق بها، وهي في جوهرها لا تتغير ولا تتبدل وإنما الذي يتغير فيها الأسلوب والكيفية، قال تعالىٰ مخاطباً نبيه الكريم

http://kotob.has.it

محمد ﷺ: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[1].

والذي قيل للرسل الكرام هو الباطل الذي كان في حق الناس شبهات، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾[2]، فالأقوام قبل قريش اتهموا الرسل الكرام بالسحر والجنون، وكذلك فعلت قريش لتنفير الناس من الداعي إلى الله محمد ﷺ ومن دعوته.

فإذا فقه الداعي هذه الحقيقة، ووعاها جيداً، زال عنه العجب والحنق والغضب إذا اتهم بالتهم الباطلة، أو أثيرت الشكوك والريب حول دعوته، لأنه ليس أحسن حالاً من رسل الله ولا أفصح بياناً منهم، ولا أكثر إخلاصاً منهم، ولا أكثر تأييداً من الله تعالىٰ منهم، ومع هذا كله أثار أهل الباطل ما أثاروه من الشبهات حولهم مما قصّه الله تعالى علينا في أخبارهم.

ثم إن الداعي بفقهه هذه الحقيقة يعلم مدىٰ ما يبلغ الضلال بالإنسان بحيث يجعله يخاصم رسل الله الذين يريدون شفاءه من الأمراض وخلاصه من النيران وإدخاله في الجنان.

وأخيراً فإن فقه هذه الأمور لازمة لكل مسلم بلا استثناء ليميز الخبيث من الطيب، وحتى لا يتأثر بهذه الشبهات فينساق

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

(٢) سورة الذاريات، الآيتان: ٥٢ ـ ٥٣.

http://kotob.has.it

وراءها ويصير - من حيث لا يشعر - مع الأعداء ضد الدعاة إلى الله تعالى»[1].

من هذا المنطلق، وبهذا الفهم يستطيع المسلم أن يشق طريقه إلى الله تعالى وهو مطمئن البال، إذ إن له قدوات وأسلاف من خيرة خلق الله واجهوا بالأمس ما يواجه هو اليوم، فهو يشق طريقاً شقّه الأنبياء والصالحون من قبل، فلم يكترثوا بتلك الشبهات ولم يعبأوا بها، فكانت العاقبة لهم رغم أنف مثيري التهم والأباطيل.

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يراق على جوانبه الدم

وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾[2].

---

(١) عبدالكريم زيدان، أصول الدعوة، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٩٨١، ص٤١٠ - ٤١١.

(٢) سورة الذاريات، الآيات: ٥٢ - ٥٥.

http://kotob.has.it

٣ ـ ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

إنها الحقيقة الثابتة الراسخة التي لا يعتريها تبديل ولا تغيير، فاليهود والنصارىٰ والشيوعيون وجميع أعداء الله اجتمعوا على صعيد واحد ورموا الإسلام والمسلمين عن قوس واحدة، وتضافرت جهودهم في تشويه صورة الدعاة والمصلحين.

لذا ينبغي أن لا يثق المسلم بهم، وأن لا يحمل نقدهم على الرغبة في الإصلاح، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[1].

ويقول الشاعر:

شـــيــــوعـــيـــون جـــذر مـــن يـــهـــود
صـــلـــيـــبـــيـــون فـــي لـــؤم الـــذئـــاب

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.

http://kotob.has.it

تــفــرّق شـــمـــلـــهـــم إلا عـــلـــيـــنـــا
فــصــرنـــا كـــالـــفـــريـــســـة لـــلـــكـــلاب

ويقول آخر:

لا الــشــرق يــبــغــي عــزنــا كــلا ولا
غــرب الــتــحــلــل إنــه كــالــحــيــة
الــكــل يــبــغــي ذلــنــا وهــوانــنــا
مــن غــيــر ربــي مــنــقــذ مــن حــيــرتــي

«لقد وجد العدوان اللدودان، وهما سدنة النظام الرأسمالي وسدنة النظام الشيوعي، أن مصلحتهما تكمن في التعاون ضد تيار الصحوة الإسلامية، فاتفقا عليها وعلى شعوبها وظهرت آثار هذه الاتفاقية في المؤتمرات الثنائية بين قيادة المعسكرين. ولهذا أصبح هدف النظامين هو حصار الحركة الإسلامية وضربها أولاً من داخلها.

ولقد أقامت المخابرات المركزية الأمريكية مائة وعشرين ندوة عالمية عن الصحوة الإسلامية، وكما يقول الأستاذ فهمي هويدي: لم نكن بحاجة إلى من يدلنا على دوافع المخابرات الأمريكية لإقامة تلك الندوات، وكونها لا علاقة لها بخدمة الإسلام والمسلمين بأي معيار، وإنما هدفها المنطقي لا يتجاوز محاولة سبر أغوار الظاهرة ورسم خطة التعامل معها، لحصارها وضربها في نهاية الأمر، إذا ما فشلت جهود تفريقها أو تطويعها لصالحهم[1].

---

(١) الأهرام والوطن بتاريخ ١٩٨٨/٢/٩.

http://kotob.has.it

وليس غريباً بعد ذلك أن نجد بعض المستشرقين من الروس ومن الأمريكان يجوبون المجتمعات العربية والإسلامية بحثاً عن أهم أسباب الخلاف والفوارق بين الإخوان المسلمين والسلفيين وحزب التحرير وجماعة الجهاد وجماعة الدعوة وبين هؤلاء وبين الحكومات»(١).

حاول أعداء الله أن يفرقوا بين الجماعات الإسلامية وخططوا لذلك أيما تخطيط ودسوا عناصرهم في صفوف بعض الجماعات الإسلامية ليألبوهم على إخوانهم الدعاة المنتمين إلى الجماعات الإسلامية الأخرىٰ، ولقد نجحوا في ذلك، وانطلى مكرهم على بعض الصالحين، فأخذوا يكيلون لإخوانهم سيلاً من التهم والشبهات ويوجهون إليهم سهامهم المسمومة، في حين لا نجد هذه السهام توجَّه بنفس المقدار والقوة إلى أعداء الله من اليهود والنصارى والشيوعيين والعلمانيين والمبتدعة وغيرهم.

لقد انشغل هؤلاء الدعاة ـ طعناً وتجريحاً ـ بإخوانهم الدعاة الذين كثر صلاحهم وقلّت هفواتهم فلم يجدوا الوقت للالتفات لغيرهم ممن كثر فسادهم وقلّ صلاحهم، فواعجباً لصنيع هؤلاء، ويا لخسارتهم، وما أدري ما هي حجتهم غداً بين يدي الله تعالى.

آن الأوان لإيقاف هذه المراهقات الفكرية والتصرفات غير الواعية التي لن نجني من ورائها إلا كل خسارة وبوار.

---

(١) سالم البهنساوي، شبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر، الوفاء للطباعة والنشر، ص١٨٧ ـ ١٨٨.

http://kotob.has.it

٤ ـ ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾

من الحقائق التي ينبغي أن يدركها الداعية أنه ليس كل حق متبع، ولا كل حجة بالغة مصدقة، ولذلك مع وجوب أن يبذل المسلم الأسباب وأن يقدم الحجة والبرهان ليدحض الاتهامات والشبه الملفقه، إلا أنه لا يليق به **أن يكون مثالياً أو أن يعيش في أحلام وردية كاذبة**، فقد لا ينفع هذا الجهد كله، وقد لا يستطيع دحض الشبه أو إزالتها وإقناع الآخرين ببطلانها.

لقد أسمعت لو ناديت حياً
ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو ناراً نفخت بها أضاءت
ولكن أنت تنفخ في رماد

«إن عليك أيها الداعية أن لا تتوقع أن يوافقك الناس على رأيك، إذا كنت مصيباً وأقمت عليه الدليل واقتنعوا هم به، فالنفس الإنسانية مزيج عجيب من عوامل شتى منها عامل الهوىٰ، فإذا سيطر الهوىٰ على المرء فلا حجة ولا منطق ولا دليل.

http://kotob.has.it

وأوضح الأمثلة على صدق ما نقول هو ما حدث للأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام دعا عبَدَة الأصنام من قومه، وبيَّن لهم قولاً وعملاً أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة لأنها مصنوعة ولا تعقل ولا تستطيع رد الأذىٰ عن نفسها، فاقتنعوا بكلامه، واعترفوا أنهم هم الظالمون، ونكسوا رؤوسهم ذلاً وخزياً، ولكن: هل اعترفوا له؟ لا، هل تركوه يذهب وشأنه؟ لا، لم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل أرادوا إحراقه والقضاء عليه.

يقول الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[1].

لقد أعوزتهم قوة الحجة فلجأوا إلى حجة القوة، وهذا مثال يتكرر على مر العصور.

وكذلك الحال في أمر يوسف الصدِّيق عليه السلام، فبعد أن ظهرت أدلة براءته من التهمة التي وجّهتها له امرأة العزيز،

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٢ ـ ٦٨.

http://kotob.has.it

بشهادة أهلها، وبعد اعترافهم بأنها مكيدة دبرتها له، سجنوه بضع سنين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأَيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾[1].

وموسى عليه السلام أرسله الله سبحانه **بالمعجزات القاطعة** إلى فرعون وقومه، فعلموا يقيناً أنها من عند الله، ومع ذلك عاندوا وجحدوا الحق اعتداءً وتكبراً، ولذلك قال الله تعالى فيهم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[2].

فإذا لم يوافقك صاحبك على رأيك فلا تغضب، ولا تحاول أن تحمل الناس على ما تراه حقاً وصواباً، إذ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[3] فمن باب أولى أن لا يكون إكراه في وجهات النظر.

كان الإمام مالك رحمه الله أثبت الأئمة في حديث المدنيين عن رسول الله ﷺ، وأوثقهم إسناداً، وقد ألّف كتابه **«الموطأ»** وتوخىٰ فيه إيراد القوي من حديث أهل الحجاز، كما نقل ما ثبت لديه من أقوال الصحابة وفتاوى التابعين وبوّبه على أبواب الفقه، فأحسن ترتيبه وأجاد تبويبه.

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٥.
(٢) سورة النمل، الآيتان: ١٣ ـ ١٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٦.

http://kotob.has.it

واعتبر «الموطأ» ثمرة جهد الإمام مالك أربعين عاماً، وهو أول كتاب في الحديث والفقه ظهر في الإسلام وافقه على ما فيه سبعون عالماً من معاصريه من علماء الحجاز.

ومع ذلك فحين أراد المنصور كتابة عدة نسخ منه، وتوزيعها على الأمصار وحمل الناس عليه حسماً للخلاف، كان الإمام مالك أول من اعترض وقال: يا أمير المؤمنين، لا تفعل هذا فإن الناس قد سبقت لهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم، قال الخليفة: وفقك الله يا أبا عبدالله[1].

وعندما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه خليفة، كان عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عاملاً له، وكانت وجهات نظرهما في المسائل تختلف، فهل حمل أمير المؤمنين عامله على رأيه؟ لا، وهل غضب منه لمخالفته إياه؟ لا، فقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن ابن مسعود خالف عمر رضي الله عنهما في حوالي مائة مسألة[2].

فلماذا أغضب أنا وتغضب أنت، ونريد أن نحمل الناس على رأينا، وهذا ما لم يفعله عمر بن الخطاب والإمام

(١) طه جابر، أدب الاختلاف في الإسلام، ص١١٩.
(٢) رواه أحمد والترمذي والحاكم.

http://kotob.has.it

مالك بن أنس رضي الله عنهما»[١].

ولكن ماذا تصنع لو سُدّت عليك الأبواب، وهاجمتك الشبهات والتهم من كل حدب وصوب وأنت بريء من ذلك، ولم تجد لك حيلة في إزالتها وإقناع الناس بزيفها، أقول ماذا تصنع إذا حدث ذلك؟

إن الجواب لا يحتاج إلى ذكاء ولا فطنة بالنسبة للمسلم، بل هو أمر بدهي عنده، وهو اللجوء إلى من بيده خزائن السموات والأرض إلى مصرّف القلوب والأبصار، إلى الذي أمره بين الكاف والنون، إلى الذي لا يخذل أحبابه ودعاته، إلى ملك الملوك، إلى من جهدنا له وبذلنا في سبيله، إلى الله رب العالمين، يصرفها كيفما شاء، إلى من وعده حق وهو لا يخلف الميعاد.

إذا ضاقت بك الأيام قهراً
فدم صبراً فضرٌ لا يدوم
فبالصبر الجميل تنال أجراً
وتقضي بعد ذلك ما تروم
فكم من محنة عظمت ودامت
وخان مواصل وجفا حميم

---

(١) وحدة الدراسات والبحوث بالندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ص٥١ ـ ٥٣ (بتصرف).

http://kotob.has.it

أتـــى فـــرج الإلـــه لـــهـــا صـــبـــاحـــاً
فـــمـــا أمـــســـى الـــهـــمـــوم ولا الـــغـــمـــوم

إنها العلاقة الربانية الإيمانية التي ينبغي للمسلم أن ينطلق منها، إنه الإيمان المتصل بالسماء المرتفع عن حضيض الدنيا، إنه أغلىٰ ما يملكه المؤمن، نعم، إنه الكنز الذي لا يقدر بثمن، بل هو أكثر من ذلك بكثير، إنها صرخة الأنبياء والمرسَلين من قبلنا، وصدق الله إذ يقول على لسان شعيب:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾[1].

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

http://kotob.has.it

٥ ـ المطلب الصعب

يطالب بعض الناس الدعوة الإسلامية أن تتتبع جميع الشبهات وأن ترد على كل واحدة منها حتى لا تبقىٰ شبهة عليها، وهذا الكلام كلام جميل ولكنه مثالي ونظري، ذلك «لأن تتبع الشبهات والرد عليها أمر يصعب على الإنسان لأمرين هما:

١ ـ إن أصحاب الحركة ما داموا يتحركون فلا بد أن يصدر عنهم الخطأ، وهذا أمر يدل على الحركة والعيش في الواقع والصراع مع الباطل الذي يحيط بهم، وليس في ذلك منقصة إذا لم يصاحبه تعصب وإصرار، بل النقص أن يجلس الدعاة عن الحركة والصراع مع الباطل بحجة الحرص على عدم الانحراف عن دين الله، ولا يعلم المسكين أنه بجلوسه هذا يمثل عين الانحراف.

٢ ـ إن الذي يبحث عن الشبهات ويقيم كيانه على أعراض الناس ويقتات من لحومهم في الليل والنهار، إنما يمثل دور الذباب في حياة البشر الذي يحوم باحثاً عن القيح

http://kotob.has.it

الناتج عن الأجزاء المريضة في الجسم التي هي من خواص الجسد، وهذا الصنف من البشر ما دام هذا همه فسيجد ما يقتات به حقيقة أو افتعالاً»[1].

لذلك يحسن بالداعية أن لا يضطرب إذا وجد شبهة أو تهمة لم يرد عليها الدعاة ولم تلتفت إليها الدعوة الإسلامية، إذ ليس للدعوة الإسلامية الجادة الوقت لكي ترد على كل صغيرة أو كبيرة، وليس لديها الجهد الفائض كي تفرغ الدعاة ليتتبعوا كل نفس وكل همسة وُجهت ضد الحركة الإسلامية، ولكنه الاعتدال والتوسط.

وبمعنىً آخر فإنه يحسن بالدعوة الإسلامية الرد على ما يستحق أن يرد عليه. والسكوت عما سوى ذلك، ثم تفوض أمرها إلى الله الذي بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله، وتوقن أن الله يدافع عن الذين آمنوا، وأنه حافظ دينه وناصر أولياءه، وأن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله.

---

(١) جاسم مهلهل، للدعاة فقط، دار الدعوة، الكويت، ١٩٨٨، ص٨٩ ـ ٩٠.

http://kotob.has.it

٦ ـ لا تكن مثل السفنجة

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله ناصحاً تلميذه النجيب ابن القيم الجوزية رحمه الله: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليه صار مقراً للشبهات»(١).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيّ قلب أُشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى يصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا يضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه»**(٢).

---

(١) جاسم مهلهل، للدعاة فقط، دار الدعوة، الكويت، ١٩٨٨، ص٨٣.

(٢) رواه مسلم.

http://kotob.has.it

ويقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»**[2].

ولقد ضرب لنا السلف أروع الأمثلة في دحض الشبهات وردها وعدم التأثر بها، ولعلي أضرب مثلاً واحداً أدلل به على كلامي هذا، وإن كانت الأمثلة لا تعد ولا تحصى.

جاء رجل إلى القاضي إياس بن معاوية المزني فقال له: لو أكلتُ التمر تضربني؟ قال: لا، فقال: لو شربت قدراً من الماء تضربني؟ قال: لا، فقال: شراب التمر (النبيذ) أخلاط منها، فكيف يكون حراماً؟

قال إياس: لو رميتك بالتراب أيوجع؟ فقال: لا، قال: لو صببت عليك قدراً من الماء أينكسر منك عضو؟ فقال: لا، قال: لو صنعت من الماء والتراب طوباً فجف في الشمس

---

(١) سورة الحج: الآية ١١.

(٢) رواه أحمد ومسلم والترمذي.

http://kotob.has.it

فضربت به رأسك كيف يكون؟ فقال: ينكسر الرأس، قال إياس: ذاك مثل هذا[1].

إن أخشىٰ ما نخشاه أن لا يكون المسلم على مستوى التحديات، فتراه أذناً صاغية لكل تهمة، وليس هذا فحسب، بل الأخطر من ذلك أن يتشرب هذه الشبهة ويصدقها، وأن تستقر في قلبه وعقله، وعندها تكون المصيبة.

يحسن بنا أن ندرك أن جل هذه الشبهات، إن لم تكن جميعها، هي شبهات يمكن دحضها وتفنيدها والقضاء عليها.

ولكن الأمر يحتاج إلى إيمان عميق بدين الله، وثقة لا تتزعزع بدعوته، وعلم واسع بشرعه، هذا بالإضافة إلى فطنة وذكاء.

ولو انتظر المسلم قليلاً، وأبىٰ أن يتشرب الشبهة، ثم رجع إلى ربه ودينه، وسأل أهل العلم لوجد الإجابة الشافية بإذن الله.

يـــا هـــذه الـــنـــفـــس اعـــلـــمـــي
أن الأمـــور لـــهـــا انـــقـــضـــاء
والـــحـــادثـــات جـــلـــيـــهـــا
وحـــقـــيـــرهـــا مـــحـــض ابـــتـــلاء

(١) نايف معروف، طرائف ونوادر من عيون التراث العربي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٧، ص٤٦.

http://kotob.has.it

والعالمون صغيرهم

وكبيرهم فيها سواء

لا تجزعي يا نفس

إن الله يفعل ما يشاء

http://kotob.has.it

٧ ـ ما كان للّه دام واتصل

إنها الكلمة المدوية التي أطلقها إمام دار الهجرة، ذلك الإمام الذي فقه كتاب الله وسنّة نبيه، إذ لما قيل له: إن فلاناً عمل موطأ آخر هو أضخم من موطئك، **رد الإمام مالك قائلاً:** «ما كان للّه دام واتصل وما كان لغيره انقطع وانفصل».

وكانت النتيجة أن «موطأ الإمام مالك» لازال المسلمون يتتلمذون ويتربون عليه، أما موطأ صاحبه الضخم فلا يعلم المسلمون عنه شيئاً.

إن المسلم إذا كان مطمئناً إلى صدق دعوته، حريصاً على الاتباع لا الابتداع، فإن عليه أن يتذكر هذه القاعدة إذا أثيرت حوله التهم والشبهات والأكاذيب، سواء رد على هذا الاتهام أم التزم الصمت.

إن هذه القاعدة تريح القلب وترسخ الثبات فيه، فالدعوة هي دعوة الله، والله متكفل بحفظها، و«**إنما الأعمال بالنيات**»[١]،

---

(١) البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب.

http://kotob.has.it

وصدق الإمام أبو يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة حينما قال: «يا قوم أريدوا بعملكم الله تعالى، فإني لم أجلس مجلساً أنوي فيه أن أعلو إلا لم أقم حتى أفتضح».

إن الإخلاص لله سبباً لقبول العمل ودوامه، والرياء وحب السمعة والشهرة سبب لرد العمل وعدم قبوله، ولذا أكّد القرآن على هذا المعنى العظيم، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾[1].

وعن أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»[2].

ويقول سفيان الثوري: «بلغني أن العبد يعمل العمل سراً فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه فيكتب في العلانية، ثم لايزال به الشيطان حتى يحب أن يُحمد عليه فينسخ من العلانية فيثبت في الرياء»[3].

---

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

(٢) متفق عليه.

(٣) عبدالله الصالح، كيف نعيش رمضان، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤١١هـ، ص ٣٨.

http://kotob.has.it

وقال **محمد بن واسع**: «لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بلّ ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده ولا يشعر به الذي إلى جنبه»[1].

وقال ابن أبي عدي: «صام **داود بن أبي هند** أربعين سنة لا يعلم به أهله، وكان خرازاً يحمل معه غداءه من عندهم فيتصدق به في الطريق ويرجع عشياً فيفطر معهم»[2].

وما أجمل ما ذكره الشافعي إذ يقول:

فَلِلّهِ دَرُّ ٱلعَارِفِ ٱلنّدبِ إنَّهُ
تفيض لِفرْطِ ٱلوَجْدِ أَجفَانُهُ دَمَا
يُقِيمُ إِذَا مَا الليلُ مَدَّ ظَلامَهُ
عَلَى نَفسِهِ مِنْ شِدَّةِ الخَوفِ مَأْتَما
فَصِيْحاً إِذَا مَا كَانَ فِي ذِكْرِ رَبّهِ
وَفِي مَا سِواهُ فِي ٱلْوَرَى كَانَ أعْجَما
وَيَذْكُر أَيَاماً مَضَت مِنْ شَبَابِهِ
وَمَا كَانَ فِيهَا بِالجَهَالَةِ أَجْرَمَا

---

(١)(٢) عبدالله الصالح، كيف نعيش رمضان، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤١١هـ، ص ٣٨.

http://kotob.has.it

فَـصَــارَ، قَــريــنَ الــهَــمِّ طُــولَ نَــهَــارِهِ
أَخَـا الـشُّـهْـدِ والـنَّـجْوى إِذَا الـلَّـيلُ أَظْـلَـمَـا
يَـقُـولُ حَـبِـيـبِـي أَنْـتَ سُـؤْلِـي وَبُـغْـيَـتِـي
كَـفَـى بِـكَ لِـلـرَّاجِـيـنَ سُـؤْلاً وَمَـغْـنَـمَـا
أَلَـسْـتَ ٱلَّـذِي غَـذَّيـتَـنِـي وَهَـديـتَـنـي
وَلاَ زِلْـتَ مَـنّـانـاً عَـلـيَّ وَمُـنْـعِـمَـا
عَـسَـى مَـنْ لَـهُ الإِحْـسَـانُ يَـغْـفِـرُ زَلَّـتـي
وَيَــسْــتــرُ أَوْزَارِي وَمَــا قَــدْ تَــقَــدّمــا

إن الداعية الحق هو الذي يكون مع الله، يعمل ولا يريد بعمله إلا وجه الله، ولا يلتفت للذين لا همّ لهم إلا الكلام بصوت مرتفع لتشويه دعوته والإضرار بها.

إن هذا الداعية يدرك إدراكاً **لا يخالجه غموض أو شك أن المستقبل لهذا الدين**، وأنه سيأتي اليوم الذي يثلج الله صدره وصدر المؤمنين بعز يعز الله الحق وأهله وبذل يذل الله الباطل وأهله من مثيري الفتن ومروِّجي الشبهات، ذلك لأن الله تعالى هو الذي يتولىٰ الصالحين، وهو الذي يدافع عنهم، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾[1].

(١) سورة الحج، الآية: ٣٨.

http://kotob.has.it

٨ ـ ما أنا عن نفسي براض

لا بد أن ينشغل الدعاة والمصلحون بعيوب أنفسهم عن عيوب الآخرين، وأن يكون هذا هو ديدنهم، ومن كان هذا هو شأنه فلن تجده متتبعاً لعيوب وعثرات الآخرين.

ولكن من ترك عيوب نفسه انشغل بعيوب الآخرين، وحرص على إظهار عوارهم وتقصيرهم، لذا إذا وجدت إنساناً همّه تصيد الأخطاء وإثارة الشبهات فاعلم أنه مليء بالعيوب والنواقص والمثالب.

يقول الإمام الشافعي رحمه الله:

أعـرض عـن الـجـاهـل الـسـفـيـه
فـكـل مـا قـال فـهـو فـيـه
مـا ضـرَّ بـحـر الـفـرات يـومـاً
إن خـاض بـعـض الـكـلاب فـيـه[١]

---

(١) محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الشافعي، جمعه وعلّق عليه محمد عفيف الزعبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣، ص٩٠.

http://kotob.has.it

وقال رجل للأحنف بن قيس: ادللني على رجل كثير العيوب، فقال الأحنف بن قيس: «اطلبه عياباً، فإنما يعيب الناس بفضل ما فيه»[١].

وهذا أبو بكر بن الأنباري، قال: أنشدنا ثعلب، قال: أنشدنا ابن الأعرابي:

ويأخُذُ عَيْبَ المرء من عيب نفسه
مُرادٌ لعمري ما أراد قريبُ[٢]

ويقول الشاعر:

فأجرأ من رأيت بظهر غيب
على عيب الرجال ذوو العيوب

ويقول الأستاذ عبدالحميد البلالي: «إن الدعاة لابد أن يفكروا دائماً في تقصيرهم تجاه من هداهم للإيمان، ويحاولوا دائماً إكمال نقصهم، فهذا هو التابعي **الربيع بن خيثم** الذي تكاملت صفاته حتى قال له ابن مسعود: لو رآك رسول الله لأحبك[٣].

يغتاب في مجلسه رجل، وكأن القوم أرادوا أن يشاركهم

---

(١) أبو علي القالي، الأمالي، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع، ص٢٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٣) تقريب التهذيب، ج١، ص ٢٤٤.

http://kotob.has.it

في ذم ذلك الرجل فقال: «**ما أنا عن نفسي براض، فأتفرغ من ذمها إلى ذم الناس، إن الناس خافوا الله في ذنوب العباد وأمنوا على ذنوبهم**»[1].

وكما أن القاعدة التي علّمنا الرسول ﷺ أنه «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..**» كذلك الحال فيمن يقع في أعراض الناس ويسبهم ويحتقرهم ويحقد عليهم إنما دعاه لذلك نسيانه لذنوبه وعيوبه وتقصيره»[2]. (انتهى كلام البلالي).

وما أجمل ما أنشده الإمام الشافعي إذْ يقول:

يا هاتكاً حرم الرجال وقاطعاً
سبل المودة عشت غير مكرم
لو كنت حراً من سلالة ماجد
ما كنت هتّاكاً لحرمة مسلم[3]

ويقول كذلك:

إذا رمت أن تحيا سليماً من الردى
ودينك موفور وعرضك صينُ

---

(1) أحمد بن حنبل، كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ص ٣٣٦.

(2) عبدالحميد البلالي، فقه الدعوة في إنكار المنكر، دار الدعوة، الكويت، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

(3) محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الشافعي، جمعه وعلّق عليه محمد عفيف الزعبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣، ص٧٧.

http://kotob.has.it

فـلا يـنـطـقـنْ مـنـك الـلـسـانُ بـسـوأة
فـكـلـك سـوءاتٌ ولـلـنـاس ألـسـنُ
وعـيـنـاك إن أبـدت إلـيـك مـعـائـبـا
فـدعـهـا وقـل يـا عـيـن لـلـنـاس أعـيـنُ
وعـاشـر بـمـعـروف وسـامـح مـن اعـتـدى
ودافـع ولـكـن بـالـتـي هـي أحـسـنُ(١)

ويروى أن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «عجباً لابـن آدم، يـرى الـقـذاة فـي عـين أخيـه ولا يـرى الـجـذع في عينه».

ويقول آخر:

قـبـيـح مـن الإنـسـان يـنـسـى عـيـوبـه
ويـذكـر عـيـبـاً فـي أخـيـه قـد اخـتـفـىٰ
فـلـو كـان ذا عـقـل لـمـا عـاب غـيـره
وفـيـه عـيـوب لـو رآهـا بـهـا اكـتـفـىٰ(٢)

(١) المرجع السابق، ص٨٤.
(٢) علي فكري، السمير المهذب، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩، ص٨٨.

http://kotob.has.it

٩ ـ ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ﴾

رغم أن الشبهات التي تثار على الدعاة والدعوات فيها إيذاء وضرر، وفيها إساءة وعنت، إلا أن فيها خيراً كثيراً لا يعلمه إلا الله تعالى، كما قال الله تعالى في حادثة الإفك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾﴾(١).

ورغم خطورة استخدام هذا الأسلوب (ترويج الشبهات) على الظالم المتهِم، ورغم سلبيات ومساوىء إثارة هذه الاتهامات على الدعوة والدعاة، إلا أن لها فوائد عدة وعبراً كثيرة للفئة المظلومة المتهَمَة، وهي كما يلي:

١ ـ هي طريق الأنبياء والرسل والصالحين، لقول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾

(١) سورة النور، الآية: ١١.

http://kotob.has.it

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾[١].

٢ ـ هي السبيل الموصل إلى الجنة لقول الرسول ﷺ: «**حُفت النار بالشهوات، وحُفت الجنة بالمكاره**»[٢]. وإثارة التهم والشبهات من أصعب وأشق المكاره التي يصبر عليها الدعاة ابتغاء مرضاة الله تعالى.

٣ ـ فيها تمحيص للصف المسلم، إذْ يتم بها التعرف على الصادق الثابت من الكاذب المتذبذب.

جزى الله الشدائد كل خير
عرفت بها عدوي من صديقي

٤ ـ بها يتم التعرف على بعض العثرات والثغرات فيتم سدها أو التخلص منها، فهي فرصة ثمينة لمراجعة الذات وإصلاح النفس.

٥ ـ توجد نفسية التحدي وترفع من درجة الحماس والحزم والجدية.

٦ ـ توحِّد صف الفئة المظلومة المستهدَفة، وتزيل الضغائن بين أفرادها، وتجعلهم صفاً واحداً أمام الظالم المعتدي.

---

(١) سورة الذاريات، الآيات: ٥٢ ـ ٥٥.

(٢) رواه مسلم.

http://kotob.has.it

٧ ـ هي سبب لحصول الدعاة المعتدىٰ عليهم على الحسنات من قِبَل الذين يطعنون فيهم ويغتابونهم ويظلمونهم، وذلك مصداقاً لقول الرسول ﷺ: **«أتدرون ما المفلس؟ إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم، فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار»**(١).

٨ ـ هي سبب لاكتشاف الطاقات والقدرات والمهارات وصقلها.

٩ ـ بها تُعرف الدعوة، ويذيع صيتها، ويعرفها الرأي العام، وتنتشر بين الناس، ويكثر أنصارها، ويبارك الله في دعاتها.

إن الفطن هو الذي **لا يكون همه الأول والأخير هو تبرئة نفسه** والدفاع عن دعوته، ولكن الحكمة والعقل يقتضيان أن يتفحص هذه التهم، فما كان فيها من حق أخذ به وأصلح من نفسه وسدّد خطاه، وما كان فيها من باطل ردّه وحرص أن لا يقع فيه بل وجعل له خطوطاً دفاعية كثيرة حتى يبتعد عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

---

(١) رواه مسلم وغيره.

http://kotob.has.it

إن للمسلم، لا سيما الداعية، شأناً كبيراً مع النصيحة، فهو يسديها وكذلك يطلبها ويتقبلها، ومن هذا المنطلق يمكن له أن يعتبر الشبهة أو التهمة نوع من النصيحة «غير المؤدبة» يحرص على الاستفادة منها، ورحم الله عمر بن الخطاب حيث قال: «رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي».

وعلى كل حال، الشاهد من كلامنا هو أن هذه الشبهات رغم أنها شر ـ كما يبدو للناظر ـ إلا أنه ينبغي أن نستفيد منها لتتحول إلى خير ثم نترك الأمر للّه عز وجل ليستكمل لنا الخير كله، إذ إنه يعلم ما لا نعلم، ويقدر على ما لا نقدر.

http://kotob.has.it

١٠ ـ لا تضع الدعوة في قفص الاتهام

يحلو لبعض الدعاة أن يكونوا دائماً في موقف الضعيف المدافع الذي قيّد يديه إلى عنقه ووضع نفسه في قفص الاتهام، لذلك تجده في حالة من المسكنة لا يحسد عليها.

ولا شك أن هذا الأسلوب أسلوب غير سوي، بل هو أسلوب الجبناء والضعفاء ومن لا ثقة لهم بدعوتهم ومنهجهم.

إن الرسول ﷺ لم يكن كذلك، بل كان يدعو الناس، ويبين خطأهم وسوء اعتقادهم، ويوجه لهم الانتقاد لعبادتهم الأصنام، حتى جعل كفار قريش في موقف الضعيف المدافع.

لا تطلبوا بالضعف حقاً ضائعا
ما لضعيف الحق من أشياع

إن الأصل في ذلك أن يمضي الداعية في دعوته، وأن يبين الانحراف والفساد، وأن لا ينتظر أهل الزيغ والانحراف كي يهاجموه ويثيروا حوله التهم والشبهات، وأن لا يلجأ إلى

http://kotob.has.it

الدفاع المستمر، وإنما يكون الدفاع أمراً عابراً، ثم يغير من سياسته لتتحول إلى سياسة هجومية، إذ إنه هو صاحب الحق الذي يفخر بالانتماء إليه ويدعو الآخرين لاتباعه، فعلامّ يعطي الدنية دائماً في دينه. بل ربما تصح هنا القاعدة العسكرية المعروفة «أفضل وسيلة للدفاع الهجوم».

فلا خير في حلم إذا لم يكن له
بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

هذا أمر يحسن أن يدركه المسلمون فضلاً عن الدعاة، ذلك لأن أعداء الله أدركوا هذا الأمر، فأخذوا يقذفون الدعاة بسيل من التهم والأباطيل، حتى لا يفيقوا من تهمة إلا ويشغلونهم في تهمة أخرى.

إن الحكمة تقتضي أن لا نمكنهم من ذلك، فبدل أن يشغلونا بباطلهم، فإنه ينبغي أن نشغلهم بحقنا وخيرنا فنجعلهم يفكرون فيه دائماً وينصرفون إليه عن ما عندهم من خلل وباطل، ولا يكون ذلك إلا برد شبهاتهم وانتقاد انحرافاتهم بالتي هي أحسن، وعدم قبول أن تكون الدعوة دائماً وأبداً في قفص الاتهام، إذ ما عندنا نحن الدعاة من تهم وانتقادات على أولئك أكثر بكثير مما عندهم علينا.

قال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، فقال: يا أبتِ فإن أكثرت وأكثرت؟ (أي

http://kotob.has.it

أكثرت كلاماً وأكثرت صواباً)، قال الهيثمي: يا بني، ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك[1].

(١) علي فكري، السمير المهذب، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩، ص٩٦.

http://kotob.has.it

١١ ـ حسن الظن أولاً

إن من القواعد الرئيسة التي ينبغي للمسلم أن ينتبه إليها قبل أن يثير أي شبهة أو أن يتقبل ويصدق أي تهمة هي أن يقدم حسن الظن بإخوانه المسلمين قبل أن يسيء الظن بهم، وأن يبحث لهم عن الأعذار والمبررات التي تبرىء ساحتهم، لاسيما إذا كانت التهمة موجهة إلى الدعاة والصالحين.

إن هذا الأمر هو ديدن الصالحين والفقهاء والحكماء من المسلمين الذين يخشون ربهم ويبغون لدين الله النصرة والغلبة.

ولو انقلب الأمر وأصبح سوء الظن مقدم على حسن الظن لما بقي عالم دون طعن، ولا شريف دون انتقاص، ولحرم المسلمون من قدواتهم، إنه منهج لا يقره شرع ولا يقبله عقل.

«والأصل في هذه القاعدة هو قول الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟

http://kotob.has.it

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[١].

فأمر الله عز وجل باجتناب كثير من الظن لأن بعض هذا الكثير إثم، وأتبع ذلك بالنهي عن التجسس، إشارة إلى أن التجسس لا يقع في الغالب إلا بسبب سوء الظن.

وأمر المسلم - في الأصل - قائم على الستر وحسن الظن، ولذلك أمر الله عز وجل المؤمنين بحسن الظن عند سماعهم لقدح في إخوانهم المسلمين.

ففي حادثة الإفك، عندما قيل ما قيل، بيَّن الله عز وجل الموقف الصحيح الذي ينبغي لكل مسلم أن يفقهه، فقال سبحانه وتعالى: «﴿لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾»[٢][٣].

يقول الدكتور مصطفى السباعي: «لأن تحسن الظن فتندم خير من أن تسيء الظن فتندم»[٤].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) سورة النور، الآية: ١٢.

(٣) هشام إسماعيل الصيني، منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين، المنتدى الإسلامي، لندن، ١٩٩٢، ص٢١.

(٤) مصطفى السباعي، هكذا علّمتني الحياة، القسم الأول، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤، ص٤٢.

http://kotob.has.it

١٢ ـ لا أعين على دم عثمان أبداً

أبو معبد الجهني أحد التابعين المخضرمين الكرام، كان في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه يحدّث الناس ويذكر لهم بعض مآخذه على عثمان رضي الله عنه، رغم إنه كان يحب عثمان رضي الله عنه حباً شديداً كما أخبر بذلك ابنه حيث قال: «والله لقد كان أبي يحب عثمان».

استغل هذه المآخذ أصحاب الفتنة من أتباع عبدالله بن سبأ اليهودي، فألّبوا الناس على عثمان رضي الله عنه، فاستجاب بعض الناس لهم، ثم قاموا على عثمان رضي الله عنه فقتلوه وهو يقرأ كتاب الله، وقد جاوز الثمانين من عمره، وكان صحابياً جليلاً مبشَّراً بالجنة قد صاهر الرسول ﷺ في ابنتيه، فلم يشفع له كل ذلك في قتله والتمثيل به.

ولما حدث ذلك لعثمان انتبه أبو معبد الجهني، وراجع حساباته، فقال كلمته المشهورة: «والله لا أعين على دم عثمان أبداً» فقيل له: أوَ أعنت على دم عثمان؟ فقال: «إني لأرى ذكر مساوىء الرجل عوناً على دمه».

http://kotob.has.it

ليت مثيري الشبهات ومروِّجيها يقفوا عند كلام هذا التابعي الجليل وقفة معتبر ومتعظ. إن الشبهة أو التهمة إذا قيلت في غير موضعها تُضل ولا تهدي، وتُفسد ولا تُصلح.

كم رأينا من شاب صالح غض طري يقدم على الله تعالى تائباً عابداً، فيتلقفه مثيرو الشبهات، فما هو إلا يوم أو بضعة أيام حتى يلقنوه كماً هائلاً من التهم والشبهات على إخوانهم الدعاة المخالفين لهم في الأسلوب والمنهج، فتكون النتيجة أن هذا الشاب يترك العبادة وربما يسب اليوم الذي عرف فيه المسجد وأهله، ثم تراه في الشوارع والطرقات والأسواق لاهياً غافلاً.

وكم رأينا من مشروع إسلامي نافع بُذلت فيه الجهود وأُنفقت له الأموال وكُرست له الأوقات ثم نجد السهام تنهال عليه من كل حدب وصوب لا لشيء إلا لأنه لا يتفق واهتمامات وتوجهات المنتقد، فيكيل عليه سيل من الملاحظات والتهم حتى يتحقق قول المتنبي:

رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرتُ إذا أصابتني سهام
تكسرت النصال على النصال
وهان فما أبالي بالرزايا
لأني ما انتفعت بأن أبالي

http://kotob.has.it

ما يـدفـن بـعـضـنـا بـعـضـاً وتـمـشـي

أواخـــرنـــا عـــلـــى هـــام الأوال

إن على المرء أن يتقي الله قبل أن يتهم مسلماً أو مشروعاً أو مؤسسة، وأن يتبين آثار هذا الاتهام، وهل فيه مصلحة **راجحة أم فيه فتنة متوقعة**، وأن يدرك القاعدة الأصولية التي تقول: **(درء المفسدة أولىٰ من جلب المصلحة)** وكذلك القاعدة الأخرى: **(فعل أخف الضررين)**، وليعلم أنه مؤاخذ على كل كلمة ينطق بها، وصدق المولى عز وجل إذ يقول: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾[1].

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

http://kotob.has.it

١٣ ـ احذر المنهج الميكيافلي

لا بد من الالتزام بشرعية الأساليب والوسائل عند التعامل مع الشبهات أو الرد عليها. إننا عندما ندعو الناس إلى دعوتنا أو نبلغ أمراً مصلحياً فنحن منضبطون بالشرع ابتداءً.

وعليه فعند تعاملنا وجب علينا الالتزام بتلك الأساليب الشرعية، ولذا لا نرضى لأنفسنا الكذب والنفاق وسوء الأخلاق والمداهنة والتجريح والتشويش والتجسس.

إن دعوتنا ينبغي أن تكون بالحسنى، كما أن الفكرة ينبغي أن تعرض بالصورة السليمة، فلا نجرح شخصاً يخالفنا في المنهج أو الرأي، ولا نتعمد إلصاق التهم بالآخرين لجذب أفرادهم إلى صفوف دعوتنا.

إن المنهج الميكيافلي هو منهج لا يتفق والشريعة الإسلامية، فالغاية عندنا لا تبرر الوسيلة، في حين أن المنهج الميكيافلي يقرر بأن الغاية تبرر الوسيلة.

الغاية عندنا شرعية، والوسيلة شرعية، فلا ينبغي للداعية

http://kotob.has.it

أن يخطو خطوة إلا وهو مطمئن أن لها سنداً من الشرع وإلا أحجم عنها.

كثير من مثيري الشبهات ينتهجون المنهج الميكيافلي دون أن يشعروا، كما إن جو إثارة الشبهات والتهم ربما يدفع بعض الدعاة إلى الرد بأسلوب أيضاً ميكيافلي غير شرعي.

لذا ينبغي الانتباه بأن الطريق إلى الله تعالى ينبغي أن يكون طريقاً شرعياً، وأن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً، وأن كل فعل لا يتفق وشريعة الله ومنهجه فهو مردود على صاحبه كائناً من كان.

http://kotob.has.it

١٤ ـ الحق أحق أن يتبع

رغم أن الاتهامات والشبهات التي تُثار على الدعوة والدعاة لها وقع مؤلم في نفوس المؤمنين، إلا أنه ينبغي للداعية أن لا يتسرع في ردود أفعاله فينكر التهمة جملة وتفصيلاً أو يبرر الخطأ أو يتمادى في الباطل أو يسعى في البحث عن آراء ضعيفة لتؤيد فعله المرجوح، أو يعاند فيتمسك بغير الصواب.

إن نفراً من الدعاة لما اتهموا بأن بعضهم لا يتحرى الحديث الصحيح، غضبوا من هذه التهمة، وأصرّ بعضهم على عدم تحري الحديث الصحيح، بل قام بعضهم بتتبع أقوال بعض العلماء في الأخذ بالحديث الضعيف، فاتخذوا ذلك حجة ودليلاً يواجهون به من يتهمهم بعدم تحري الحديث الصحيح، وكاد الأمر يتحول إلى معركة لولا أن أحد العقلاء من الدعاة جاء إليهم فوعظهم موعظة بليغة، وذكّرهم بضرورة تحري الصحيح من الحديث، فانتبه الغافلون والتزموا المنهج السليم باتباع وتحري الحديث الصحيح.

http://kotob.has.it

من المحتمل أن تصدر عن العلماء والقادة والدعاة بعض الأخطاء لأنهم بشر غير معصومين، لذا فالأجدر بالمسلم أن لا يبرر الخطأ، ولا يتمسك بالباطل ويصر عليه، بل يحسن به أن يقول: إن هذا العالم أو هذا الداعية ثقة وله حسنات كثيرة، ولكنه أخطأ في هذه المسألة، ولا نقبل خطأه، ولا نتبع زلته، ولكننا أيضاً لا نجرحه ونهدم جهاده الطويل ونشوّه صورته.

ولو فعل الدعاة ذلك لأراحوا أنفسهم من هم الجدال والمراء، ومن اللف والدوران، ومن عناء البحث عن الأدلة الضعيفة والمرجوحة، ومن التعصب المذموم للمذهب أو الحركة أو الحزب أو الجماعة.

إن تعصبنا ينبغي أن يكون للحق لا لسواه، وكفى تبريراً للخطأ وتلاعباً بالحق، فإن الله لا يرضى منا إلا الالتزام بمنهجه لا الالتزام بمنهج فلان أو علان.

هذه الحقيقة ينبغي أن يفهمها الدعاة حتى تهدأ نفوسهم وتطمئن قلوبهم ولا يرتابوا بمنهجهم إن قيل لهم إن العالم الفلاني أو القائد الفلاني أو أمير ورئيس الجماعة الفلانية أخطأ، إذ إنهم إذا فقهوا هذا المعنى فإنهم يدركون أن هؤلاء بشر نأخذ منهم ما وافق الشرع وندع ما خالفه، وليس في ذلك انتقاص لهم.

فالمسلم يوزن بميزان الحسنات والسيئات، فإذا رجحت حسناته على سيئاته فإنه يُمدح ويُثنى عليه وربما يكون إماماً

http://kotob.has.it

وقائداً متبعاً، ولكن يتبع في الحق، إذ ليس هناك معصوم عن الخطأ، حتى الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا ولم يزعموا أنهم معصومون عن الخطأ.

وكل من يزعم أنه أو أن دعوته وقادته معصومون أو بعيدون عن الخطأ والزلل فهؤلاء حري بالمسلم أن يحذر منهم، إذ إن فيهم غروراً وكبراً ولديهم غبش في الفهم والتصور والإدراك.

نعم، «إن المسلم طالب حق، باحث عن الحقيقة، ينشد الصواب، ويفر من الخطأ.

وقد كان من عادة اليهود أن يخلطوا الحق بالباطل، تلبيساً على الناس، وتوصلاً إلى ما يريدونه من الضلال، فنهاهم الله سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾»[1].

وقال سبحانه يصف أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارىٰ، الذين يعرفون أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق، وهو موجود في كتبهم ولكن بعض علمائهم وأحبارهم يخفون هذا الحق: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[2].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٢.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

http://kotob.has.it

ويقول الرسول ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق الناس بها**»[1].

ويعرف الكبر، وهو داء نفسي خطير يتهدد الإيمان، بأنه رد الحق وإنكاره وعدم قبوله واحتقار الناس، وذلك في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم وغيره عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن الرسول ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر**» فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر: بطر الحق، وغمط الناس**».

فإنكار الحق وعدم قبوله، أو إخفاؤه وستره، من صفات اليهود والنصارى، وهو أمر خطير يهدد مصير الإنسان في الآخرة، لذلك كانت عناية علماء السلف رحمهم الله منصبّة على تخليص النية من الشوائب في المناقشات والمناظرات.

وفي ذلك يقول الإمام الغزالي أثناء حديثه عن علم الخلاف وآفات المناظرة والجدل: «التعاون على طلب الحق من الدين، ولكن له شروط وعلامات.. منها: أن يكون في طلب الحق كناشد ضالة لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد من يعاونه، ويرىٰ رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرَّفه الخطأ وأظهر له الحق.

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.

http://kotob.has.it

فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم، حتى إن امرأة ردّت على عمر رضي الله عنه ونبّهته إلى الحق، وهو في خطبته على ملأ من الناس فقال: أصابت امرأة وأخطأ رجل.

وسأل رجل علياً رضي الله عنه فأجابه، فقال: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كذا وكذا، فقال: أصبت، وأخطأت، وفوق كل ذي علم عليم»[1].

ودخل أحد العلماء على هارون الرشيد، وكان قبيح الصورة قصير القامة، فاستحقره الرشيد وقال له: ما أقبح هذا الوجه! فقال العالم: يا أمير المؤمنين، إن حسن الوجه ليس مما يتوسل به إلى الملوك، هذا يوسف عليه السلام أحسن الناس وجهاً قال لربه: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ولم يقل إني حسن الوجه جميل، قال هارون: صدقت، ارتفع. ثم رفع قدره وقرّبه من مجلسه[2].

إن التسليم بالخطأ صعب على الإنسان الذي لم يعتد عليه، خاصة إذا أخطأ أمام جمع، فإنه يشعر بالحرج والخجل الشديدين من خطئه، والتسليم بالخطأ يحتاج إلى شجاعة أدبية وقوة نفسية ومجاهدة للنفس، ولكن الإنسان متى اعتاده وجد له حلاوة قد تقارب أحياناً حلاوة الفوز والنصر!.

---

(١) الإحياء ٦٥/١.

(٢) علي فكري، السمير المهذب، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩، ص٧٩.

http://kotob.has.it

والتسليم بالخطأ - خلاف ما يظن المخطىء أول وهلة - يُكسب صاحبه احترام الناس وتقديرهم، على عكس الإصرار على الخطأ الذي يفقده احترام الناس له، كما يفقده احترامه لنفسه. وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «**كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون**»(١)(٢).

إن الله مدح الذين لا يصرون على أخطائهم فقل فيهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾(٣).

كما ذمّ الله عز وجل الذين يصرُّون على أخطائهم ومعاصيهم فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨)﴾(٤).

ويقول تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ(٥) الْعَظِيمِ﴾(٦).

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي.

(٢) وحدة الدراسات والبحوث بالندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ص١٧ - ١٨، ٣٥.

(٣) سورة آل عمران، الآيتان: ١٣٥ - ١٣٦.

(٤) سورة الجاثية، الآيتان: ٧ - ٨.

(٥) الحنث هو الذنب المؤثم.

(٦) سورة الواقعة، الآيات: ٤١ - ٤٦.

http://kotob.has.it

١٥ ـ هاوية التعصب

التعصب آفة كثير من الناس، بل هو بلاء عمّ وطمّ، بلاء متجدد عبر العصور والدهور، يلبس أثواباً متلونة متعددة، ولكنه في النهاية شيء واحد، ألا وهو التعصب الذي يصم آذان صاحبه ويعمي بصره وبصيرته إلا من شيء واحد وهو المذهب أو الطائفة أو الجماعة أو الحزب أو. . . إلخ.

المتعصب لا يتبع الدليل، وإنما يتبع ما يتعصب له وإن بدا له أن الحق خلاف مذهبه أو رأي حزبه أو جماعته. إنه خلل تربوي عميق، بل هو خلل في الإيمان والإخلاص والتجرد لله.

إن الله أمرنا أن نطيعه ونطيع رسوله ولم يأمرنا أن نطيع ونتعصب لغيرهما، فقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾[١].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٢.

http://kotob.has.it

إن هذا الخلل في الفهم أدىٰ بكثير من الناس، بل وبكثير من الدعاة، إلى التمسك بحذافير آراء ومواقف وتصورات مذاهبهم أو جماعاتهم وأحزابهم على حساب الحق أحياناً، جعلهم يأبون أن تنتقد مذاهبهم وجماعاتهم، حتى لو كان هذا الانتقاد حق لا ريب فيه.

أصبح أحدهم يدافع دفاع المستميت دون وعي ولا إدراك وكأنما قد أصيب بمس من الجن أو كان تحت تأثير التنويم المغناطيسي. ربما لم يفكر بعضهم أين يكمن الحق وأين يكون الصواب وأين الدليل على هذا وذاك؟

وفي المقابل تجده يثير الشبهات والاتهامات على مخالفي مذهبه أو جماعته، بل ويشعل الحروب مع الآخرين، لا لشيء إلا لهذه المخالفة.

ولو أنهم تركوا هذا التعصب لأراحوا أنفسهم من هذه الحروب ولأراحوا إخوانهم... إنه الجهل الذي يفتك بصاحبه وهو لا يشعر.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كلام نفيس جداً موضحاً خطورة هذا التعصب: «وإذا كان الرجل متبعاً لأبي حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد، ورأىٰ في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوىٰ فاتبعه كان قد أحسن في ذلك، ولم يقدح ذلك في دينه ولا عدالته بلا نزاع، بل هذا أولىٰ بالحق وأحب إلى رسول الله ﷺ ممن يتعصب لواحد معين

http://kotob.has.it

غير النبي ﷺ، كمن يتعصب لمالك أو الشافعي أو أحمد أو أبي حنيفة، ويرىٰ أن قول هذا المعين هو الصواب الذي ينبغي اتباعه دون قول الإمام الذي خالفه.

فمن فعل هذا كان جاهلاً ضالاً، بل قد يكون كافراً، فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس اتباع واحد بعينه من هؤلاء الأئمة دون الإمام الآخر فإنه يجب أن يُستتاب، فإن تاب وإلا قُتل، بل غاية ما يقال: إنه يسوغ أو ينبغي أو يجب على العامي أن يقلد واحداً لا بعينه، من غير تعيين زيد ولا عمرو.

وأما أن يقول قائل: إنه يجب على العامة تقليد فلان أو فلان فهذا لا يقوله مسلم.

ومن كان موالياً للأئمة محباً لهم، يقلد كل واحد منهم فيما يظهر له أنه موافق للسنة فهو محسن في ذلك، بل هذا أحسن حالاً من غيره، ولا يقال لمثل هذا مذبذب على وجه الذم، وإنما المذبذب المذموم الذي لا يكون مع المؤمنين ولا مع الكفار، بل يأتي المؤمنين بوجه ويأتي الكافرين بوجه.

ومن تعصّب لواحد بعينه من الأئمة دون الباقين فهو بمنزلة من تعصّب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقين، كالرافضي الذي يتعصّب لعلي دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة، وكالخارجي الذي يقدح في عثمان وعلي رضي الله عنهما، فهذه طرق أهل البدع والأهواء الذين ثبت

http://kotob.has.it

بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون خارجون عن الشريعة والمنهاج الذي بعث الله به رسول الله ﷺ.

وهذا أبو يوسف ومحمد أتبع الناس لأبي حنيفة وأعلمهم بقوله، وهما قد خالفاه في مسائل لا تكاد تحصىٰ، لما تبيّن لهما من السنة والحجة ما وجب عليهما اتباعه، وهما مع ذلك معظّمان لإمامهما، لا يقال فيهما مذبذبان.

بل أبو حنيفة وغيره من الأئمة يقول القول ثم تتبين له الحجة في خلافه فيقول بها، ولا يقال مذبذب، فإن الإنسان لا يزال يطلب العلم والإيمان فإذا تبين له من العلم ما كان خافياً عليه اتبعه، وليس هذا مذبذباً، بل هذا مهتدٍ زاده الله هدىٰ، وقد قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].

فالواجب على كل مؤمن موالاة المؤمنين وعلماء المؤمنين، وأن يقصد الحق ويتبعه حيث وجده، ويعلم أن من اجتهد منهم فأصاب فله أجران، ومن اجتهد منهم فأخطأ فله أجر لاجتهاده، وخطؤه مغفور له.

وعلى المؤمنين أن يتبعوا إمامهم إذا فعل ما يسوغ، فإن النبي ﷺ قال: «**إنما جُعل الإمام ليؤتم به**» وسواء رفع يديه أو لم يرفع يديه لا يقدح ذلك في صلاتهم ولا يبطلها، لا عند أبي حنيفة ولا الشافعي ولا مالك ولا أحمد. ولو رفع الإمام

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.

http://kotob.has.it

دون المأموم أو المأموم دون الإمام لم يقدح ذلك في صلاة واحد منهما.

ولو رفع الرجل في بعض الأوقات دون بعض لم يقدح ذلك في صلاته.

وليس لأحد أن يتخذ قول بعض العلماء شعاراً يوجب اتباعه، وينهي عن غيره مما جاءت به السنة، بل كل ما جاءت به السنة فهو واسع، مثل الأذان والإقامة، فقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ «أنه أمر بلالاً أن يشفع الأذان، ويوتر الإقامة»، وثبت عنه في الصحيحين «أنه علّم أبا محذورة الإقامة شفعاً شفعاً، كالأذان» فمن شفع الإقامة فقد أحسن، ومن أفردها فقد أحسن، ومن أوجب هذا دون هذا فهو مخطىء ضال، ومن والىٰ من يفعل هذا دون هذا بمجرد ذلك هو مخطىء ضال.

وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها، حتى تجد المنتسب إلى الشافعي يتعصب لمذهبه على مذهب أبي حنيفة حتى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أبي حنيفة يتعصب لمذهبه على مذهب الشافعي وغيره حتى يخرج عن الدين، والمنتسب إلى أحمد يتعصب لمذهبه على مذهب هذا أو هذا، وفي المغرب تجد المنتسب إلى مالك يتعصب لمذهبه على هذا أو هذا، وكل هذا من التفرق والاختلاف الذي نهىٰ الله ورسوله عنه.

http://kotob.has.it

وكل هؤلاء المتعصبين بالباطل، المتبعين الظن وما تهوىٰ الأنفس، المتبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، مستحقون للذم والعقاب، وهذا باب واسع لا تحتمل هذه الفتيا لبسطه، فإن الاعتصام بالجماعة والائتلاف من أصول الدين، والفرع المتنازع فيه من الفروع الخفية فكيف يقدح في الأصل بحفظ الفرع.

وجمهور المتعصبين لا يعرفون من الكتاب والسنة إلا ما شاء الله، بل يتمسكون بأحاديث ضعيفة أو آراء فاسدة أو حكايات عن بعض العلماء والشيوخ قد تكون صدقاً وقد تكون كذباً، وإن كانت صدقاً فليس صاحبها معصوماً، يتمسكون بنقل غير مصدق عن قائل غير معصوم، ويدعون النقل المصدق عن القائل المعصوم وهو ما نقله الثقات الأثبات من أهل العلم ودوّنوه في الكتب الصحاح عن النبي ﷺ»[1].

وقد أعجبني تفصيل الدكتور يوسف القرضاوي في كتابه القيم «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» إذ قسم التعصب إلى أربعة أنواع رئيسة، أرىٰ من المناسب ذكرها مع شيء من الاختصار، معتذراً إلى القارىء أن أنقل له عدة صفحات مما ذكره الدكتور القرضاوي، حيث وجدت فيها ما هو نافع في هذا الموضوع الذي أشكل على

---

(١) أحمد بن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج٢٢، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، المملكة العربية السعودية، ص٢٤٨ ـ ٢٥٥.

http://kotob.has.it

كثير من الدعاة والصالحين اليوم. يقسم الدكتور القرضاوي التعصب إلى التالي:

١ ـ التعصب للآراء الشخصية:

بحيث لا ينزل عن رأيه ولو ظهر له خطؤه، وتهاوت شبهاته أمام حجج الآخرين، بل يظل مصراً عليه مستمسكاً به مدافعاً عنه، انتصاراً للنفس ومكابرة للغير واتبعاً للهوىٰ وخوفاً من الاتهام بالقصور أو التقصير.

ورضي الله عن الإمام الشافعي الذي قال: والله ما أبالي أن يظهر الحق على لساني أو على لسان خصمي.

والمتعصب أشبه بامرىء يعيش وحده في بيت من المرايا، فلا يرى فيها غير شخصه أينما ذهب، يمنة أو يسرة، وكذلك المتعصب لا يرىٰ ـ رغم كثرة الآراء ـ غير رأيه، فهو مغلق على وجهة نظره وحدها، ولا يفتح عقله لوجهة سواها، يزعم أنه الأذكىٰ عقلاً والأوسع علماً والأقوىٰ دليلاً، وإن لم يكن لديه عقل يبدع ولا علم يشبع ولا دليل يقنع.

وبعضهم له معاذير كثيرة، يلجأ إليها إذا أعياه المنطق وأعوزته الحجة وغُلب أمام خصومه، فحيناً يتشبث بتقليد الآباء، وآونة بطاعة الكبراء، وثالثة باتباع الجمهور: أنا مع الناس، إن أحسنوا أحسنت، وإن أساؤوا أسأت.

وبعض هؤلاء المتعصبين يرفض مقدماً وجهة النظر

http://kotob.has.it

الأخرىٰ، دون أن يتيح لنفسه فرصة الاطلاع عليها ـ بالقراءة أو بالسماع ـ اطلاعاً يمكنه من الإحاطة بها وإدراك حقيقتها، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾[(١)].

٢ ـ التعصب للمذاهب والأئمة:

وهذا شأن غلاة المقلدين الذين يكادون يضفون على مذاهبهم العصمة وعلى أئمتهم القداسة، وهم يبنون تعصبهم هذا على دعائم غير مسلمة لهم، كأن يقولوا أن التقليد واجب، وخصوصاً تقليد المذاهب أو الأئمة الأربعة، كما قال صاحب «الجوهرة» في علم التوحيد:

فواجب تقليد حبر منهمو
كما حكى القوم بلفظ يفهم!

مع العلم المقطوع به: أنه لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولم يوجب الله ولا رسوله اتباع زيد أو عمرو من الناس بأعيانهما، وإن بلغا في العلم والفضل ما بلغا.

ولهذا أنكر كبار علماء الأمة ومحققيها هذا الغلو في

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٧٠ ـ ١٧١.

http://kotob.has.it

التقليد، الذي كاد يشبه ما فعله أهل الكتاب من اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

يقول العز بن عبدالسلام رحمه الله تعالى: «لم يزل الناس يسألون من اتفق من العلماء من غير تقييد بمذهب ولا إنكار على أحد من السائلين، إلى أن ظهرت هذه المذاهب ومتعصبوها، من المقلدين، فإن أحدهم يتبع إمامه مع بعد مذهبه عن الأدلة، مقلداً لهم فيما قال، كأنه نبي أرسل، وهذا نأي عن الحق وبعد عن الصواب، لا يرضىٰ به أحد من أولي الألباب».

٣ ـ التعصب ضد المذاهب والأئمة:

وإذا كان التعصب للمذاهب وأقوال الأئمة ـ كما تجلى ذلك في عصور التقليد والعصبية المذهبية ـ مذموماً، فمثله في الذم أو أشد من يتعصب ضد المذاهب والأئمة بصورة مطلقة، ويوجه إليها سهام نقده وطعنه بدعوىٰ أنها مخالفة للسنة.

وهذا ما نراه في بعض الناس في هذا العصر، لا أظن لهم سلفاً فيمن مضىٰ من علماء الإسلام، إلا ما كان من عنف ابن حزم، وطول لسانه الذي شهره بسيف الحجاج، وهو ما عابه عليه كل منصف بعده.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فموقفه معروف غير مجهول،

http://kotob.has.it

لذا يقول رحمة الله تعالى عليه في كتابه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» في مقدمته بعد الخطبة: «يجب على المسلمين بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين كما نطق به القرآن، خصوصاً العلماء الذين هم ورَثَة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم يُهتدىٰ بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم».

ثم قال: «فإنهم خلفاء الرسول ﷺ في أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يعتمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته، دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول ﷺ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه، وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

الثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ، وهذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة».

وقد فرّع شيخ الإسلام هذه الأسباب إلى عشرة، فصل

http://kotob.has.it

القول فيها، ثم قال: «فهذه الأسباب العشرة ظاهرة، وفي كثير من الأحاديث يجوز أن يكون للعالم حجة في ترك العمل بالحديث، لم نطلع نحن عليها، فإن مدارك العلم واسعة، ولم نطلع نحن على جميع ما في بواطن العلماء، والعالم قد يبدي حجته وقد لا يبديها، وإذا أبداها قد تبلغنا وقد لا تبلغ، وإذا بلغتنا فقد ندرك موضع احتجاجه وقد لا ندركه، سواء كانت الحجة صواباً في نفس الأمر أم لا» (انتهى كلام الإمام ابن تيمية).

أما القول بأن التقليد حرام على كل الناس، وأن الاجتهاد واجب على كل الناس حتى العوام منهم، فهو قول مرفوض عند الكافة.

كيف وللاجتهاد شروط أجمع عليها الأصوليون، لا تتوافر لكثير من أهل العلم، فكيف يتصور توافرها عند العامة والدهماء من الناس من الأميين وأشباههم، وممن لا ينطقون بالعربية من المسلمين، وهم يمثلون نحو ٨٥٪ من المجموع الكلي للمسلمين؟

كيف نطالب العامي أن يجتهد في معرفة الحكم بدليله وهو لا يملك أي أداة من الأدوات الضرورية للاجتهاد الجزئي ولو في مسألة واحدة؟

إننا نكلفه بما ليس في وسعه، والله تعالى يقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[١].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

http://kotob.has.it

والقول بأن المذاهب فرقت المسلمين قول مردود، فالاختلاف في الفروع لا يضر بوحدة المسلمين، وقد اختلف الصحابة والتابعون والأئمة فيها فما ضرهم ذلك شيئاً.

والزعم بأن وجود النص أو الحديث كاف لإزالة الخلاف وتوحيد الجميع زعم غير صحيح.

قد عرفنا في عصرنا أناساً يجهدون أنفسهم، ويجهدون الناس معهم، ظانين أنهم قادرون على أن يصبوا الناس في قالب واحد يصنعونه هم لهم، وأن يجتمع الناس على رأي واحد يمشون فيه وراءهم وفق ما فهموه من النصوص الشرعية، وبذلك تنقرض المذاهب ويرتفع الخلاف ويلتقي الجميع على كلمة سواء.

ونسي هؤلاء أن فهمهم للنصوص ليس أكثر من رأي يحتمل الخطأ، كما يحتمل الصواب، إذ لم تضمن العصمة لعالم فيما ذهب إليه وإن جمع شروط الاجتهاد كلها، كل ما ضمن له هو الأجر على اجتهاده، أصاب أم أخطأ.

ولهذا لم يزد هؤلاء على أن أضافوا إلى المذاهب المدونة مذهباً جديداً.

ومن الغريب أن هؤلاء ينكرون على أتباع المذاهب تقليدهم لأئمتها على حين يطلبون من جماهير الناس أن يقلدوهم ويتبعوهم.

http://kotob.has.it

ولا تحسبن أني أنكر عليهم دعوتهم إلى اتباع النصوص، أو اجتهادهم في فهمها، فهذا من حق كل مسلم استوفىٰ شرائط الاجتهاد وأدواته، ولا يملك أحد أن يغلق باباً فتحه الرسول ﷺ للأمة، إنما أنكر عليهم تطاولهم على مناهج علماء الأمة، واحتقارهم للفقه الموروث، ودعاواهم العريضة في أنهم وحدهم على الحق، وما عداهم على خطأ أو ضلال، وتوهمهم أن باستطاعتهم إزالة الخلاف، وجمع الناس قاطبة على قول واحد، وهو قولهم![1].

ولعل أعدل ما قيل في التقليد والتمذهب ما قاله الأستاذ حسن البنا رحمه الله عنه في أصوله العشرين: «لكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الشرعية أن يتبع إماماً من أئمة الدين، ويحسن به مع ذلك أن يتعرف على أدلة إمامه ما استطاع، وأن يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل، متى صح عنده صدق من أرشده وكفايته. وأن يستكمل نقصه العلمي - إن كان من أهل العلم - حتى يبلغ درجة النظر.

٤ - التعصب للفئة أو الحزب:

ومن التعصب الذي ينبغي أن نحذر منه: التعصب للفئة أو للحزب أو للجماعة التي ينتسب إليها المسلم، تعصباً

---

(١) يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ص١٦٢ - ١٦٤.

http://kotob.has.it

يجعله ينتصر لها بالحق وبالباطل على نحو ما قاله العرب في الجاهلية: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قبل أن يعدل رسول الله ﷺ مفهوم الجملة، ويعطيها تفسيراً جديداً يتفق مع قيم الإسلام.

ومن التعصب للجماعة أو الحزب، أن يضفي عليها من الصفات ما يشبه القداسة أو العصمة، فكل ما تقوله فهو حق، وكل ما تفعله فهو جميل، وكل ما يصدر عنها فهو صواب، وكل تاريخها أمجاد، وكل رجالها ملائكة.

وهذا ليس بصحيح، فكل جماعة قامت لنصرة الإسلام وتجديده في العقول والأنفس والحياة والمجتمع، ليست أكثر من مجموعة من المسلمين تجتهد في خدمة الإسلام وإعلاء كلمته، وهي في اجتهادها تصيب وتخطىء، وهي مأجورة على كل حال أصابت أم أخطأت، فلكل مجتهد نصيب، ولكل امرىء ما نوىٰ.

ومن مظاهر هذا التعصب: ألا يذكر لجماعته أو لحزبه إلا المزايا والحسنات، ولا يذكر للجماعات الأخرىٰ إلا العيوب والسيئات، وأن يعظم رجال مجموعته مهما يكن فيهم من تقصير أو قصور، ويحقر رجال الآخرين مهما يكن فيهم من سمو في العلم والعمل.

ومن مظاهر هذا التعصب: أن يفرح بأخطاء الآخرين،

http://kotob.has.it

وقد يشنع بها، ويضرب بها الطبل، في حين يتعامىٰ عن أخطاء فئته وجماعته، وإذا اعترف بها حاول أن يهون منها ويعتذر لها، ويدافع عنها.

ومن مظاهر هذا التعصب: المبالغة في المحافظة على الأشكال التنظيمية للحزب أو للجماعة، كأنها أمور تعبدية، حتى يضحي - في بعض الأحيان - بمصلحة الدعوة الإسلامية والأمة الإسلامية، كيلا تخدش الصورة التنظيمية.

وهذا خطأ شنيع في الفهم، فالأشكال التنظيمية «وسائل وأدوات» تتغير بتغير الزمان والمكان والإنسان، وليست «أصناماً تُعبد» أو غايات تُقصد لذاتها، كما يُفهم ذلك من تصرفات بعض الغلاة في احترام التنظيم[1]! (انتهى كلام الدكتور يوسف القرضاوي).

(١) يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الصحوة، ص٢٠٥ ـ ٢٢١ (باختصار وتصرف محدود).

http://kotob.has.it

١٦ ـ بالتثبت والتأني تقي مصارع السوء

هذه وصية جليلة ومهمة في مواجهة الشبهات والتهم، وهي قاعدة سطرها القرآن الكريم بوضوح، وقد عقد الأستاذ عبدالحميد البلالي فصلاً موفقاً في هذا الموضوع في كتابه القيم «فقه الدعوة في إنكار المنكر» نورد شيئاً مما ذكر، حيث يقول:

«التبين والتثبت صفة لأهل اليقين من المؤمنين، وبسبب هذه الصفة التي فيهم يبين الله لهم الآيات والعلامات في الأمم التي مضت، حتى يستخرجوا العبر التي تقيهم ما وقع به غيرهم من غضب الله تعالى، لذلك يقول سبحانه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1]».

ويقول الشيخ صديق حسن خان: قرأ الجمهور فتبينوا من التبين، وقرىء فتثبتوا من التثبت، والمراد من التبين التعرف والتفحص ومن التثبت الأناة وعدم العجلة والتبصر

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١١٨.

http://kotob.has.it

بالأمر الواقع والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر[1].

ذكر الله تعالى في كتابه الكريم حاثاً المسلمين على التخلق بهذا الخلق في قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[2] وليؤكد لهم أن هذا أصل لابد منه من أصول الإنكار. إننا نسمع كثيراً عن معاصي يقترفها بعض الناس، وربما سمعنا ذلك من أناس قد التزموا اتباع السنة في مظاهرهم، وقد يكونون في بعض الأحيان من الملتزمين مع جماعة صالحة، ونسارع في تصديقهم، واتخاذ موقف من زيد أو عمرو دون أن نتثبت، لذلك جاءت هذه الآية لتكون قاعدة من قواعد فقه الإنكار.

وسبب تحذير الله سبحانه وتعالى المؤمنين من التسرع، وتنبيههم للتثبت قبل اتخاذ الموقف، بيّنه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾[3] أي: لئلا تصيبوا قوماً من الناس الأبرياء وأنتم تجهلون حقيقة الأمر فتصيروا بعد ظهور براءتهم نادمين على ما ارتكبتم في حقهم، مغتمِّين غماً يلازمكم، وتتمنوا أن ذلك لم يقع منكم، لأن الندم هو الغم على وقوع شيء مع تمني عدم وقوعه[4].

---

(١) فتح البيان: ٧٢/٩.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٤) موسوعة أخلاق القرآن ١٩/٣، ٢٠.

http://kotob.has.it

وهذا الغم الذي يصيب المؤمنين بسبب تعجلهم إنما هو نتيجة ما يأمر به الشيطان، ليجعلهم في حزن وأذى، وليساعد على تفككهم بنشر الأحقاد فيما بينهم وانتزاع الثقة وحسن الظن الذي يجمعهم، لذا قال ﷺ: «**التأني من الله، والعجلة من الشيطان**»(١).

قال الإمام ابن القيم: «إنما كانت العجلة من الشيطان، لأنها خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم، وتوجب وضع الشيء في غير محله، وتجلب الشرور وتمنع الخيور»(٢).

ويقول النبي ﷺ: «**التؤدة والاقتصاد والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة**»(٣).

فأين الهمم التي تتسابق لامتلاك هذه الأجزاء النبوية؟

وفي قصة سليمان مع الهدهد يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾(٤).

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» وحسنه الألباني، ص ج ص ٣٠٠٨.

(٢) فيض القدير ٣/٢٧٧.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، والترمذي عن عبدالله بن سرجس، وصححه الألباني، ص ج ص٣٠٠٧.

(٤) سورة النمل، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.

http://kotob.has.it

يقول الشيخ سيد قطب رحمه الله: «ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥ﴾.

ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض إنما هو نبي وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي من شأنه قضاءً نهائياً قبل أن يسمع منه، ويتبين عذره، ومن ثم تبرز سمة النبي العادل: ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾[1].

إن الأناة والتثبت صفة جميلة يحبها الله، وتكون أجمل إذا جاءت من القادر على العقاب، واتخاذ القرار، لهذا قال الشاعر **ابن هانيء المغربي**:

وكل أناة في المواطن سؤدد
ولا كأناة من قدير محكم
ومن يتبين أن للصفح موضعا
من السيف يصفح عن كثير ويحلم
وما الرأي إلا بعد طول تثبت
ولا الحزم إلا بعد طول تلوم[2]

القاضي أبو يعلى يذكر في الأحكام السلطانية ما يتعلق

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٢٦٣٨/٥.
(٢) موسوعة أخلاق القرآن ٢٧/٣، التلوم: أي الانتظار أو التأني في الأمر.

http://kotob.has.it

بالمحتسب فيقول: «وإذا رأى وقوف رجل مع امرأة في طريق سالك لم تظهر منهما أمارات الريب لم يتعرض عليهما بزجر ولا إنكار، وإن كان الوقوف في طريق خال فخلوا بمكان ريبة فينكرها ولا يعجل في التأديب عليهما حذراً من أن تكون ذات محرم، وليقل: إن كانت محرم فصنها عن موقف الريب، وإن كانت أجنبية فاحذر من خلوة تؤديك إلى معصية الله عز وجل.

وليكن زجره بحسب الأمارات، وإذا رأى المحتسب من هذه الأمارات ما ينكرها تأنىٰ وفحص وراعىٰ شواهد الحال، ولم يعجل بالإنكار قبل الاستخبار»[1].

وروىٰ البخاري في صحيحه الحديث القدسي فيما يرويه الرسول ﷺ عن ربه: **«من عادىٰ لي ولياً آذنته بالحرب. . .»**[2].

فإذا كان الأمر بالتثبت لعامة المسلمين واجباً ففي العلماء أوجب، ذلك لما يؤثره التسرع باتهامهم من حرمان العوام من علمهم، أو ظن السوء فيهم وربما كانوا منه براء»[3]. (انتهى كلام البلالي).

---

(١) الآداب الشرعية ١/٣٢٢.

(٢) رواه البخاري.

(٣) عبدالحميد البلالي، فقه الدعوة في إنكار المنكر، دار الدعوة، الكويت، ص١٠٠ ـ ١٠٩.

http://kotob.has.it

وبعد كلام الأستاذ البلالي تعالوا معنا إلى كلام آخر نفيس، فيه إتمام لهذا الموضوع وتبيان لجوانب أخرى متعلقة به، حيث يقول الأستاذ هشام إسماعيل الصيني: «وينبغي هنا التنبيه إلى أمر مهم، وهو ما قام به علماء الرجال في نقدهم، في التفريق بين الضابط وغير الضابط، والحافظ وغير الحافظ».

وليس المقام مقام كلام عن منهج علماء الرجال في الجرح والتعديل، بقدر ما هو بيان للمنهج السليم في تلقي الأخبار عامة وفي كل الأمور؛ سواء كانت في رواية الأحاديث أو في نقل الفتاوى عن العلماء، أو في نقل كلام أشخاص آخرين.. إلخ.

فإنه يجب التفريق بين الراوي للخبر إذا كان جيد الحفظ أو سيء الحفظ، وإذا كان جيد الفهم أو رديء الفهم، أو جيد التعبير أو رديئه، فضلاً عن التثبت في صدقه وأمانته.

فإن الخبر إذا جاء به إنسان سيء الحفظ أو سيء الفهم أو رديء التعبير عيي الكلام، **فهذا لابد من التثبت من خبره**، لأن الغالب عليه أن ينقص من الخبر ما يكون فيه تقييد لما أطلق أو تفسير لما أجمل وما شابه ذلك، أو يعبر عنه بفهمه السقيم فيجعل الأمر عكس مراد المتكلم، ويذكر عنه كلاماً لم يقله ولم يرده المتكلم، أو ينقص منه ما هو مهم في الحقيقة غير مهم في نظر الناقل السيء الفهم، أو يعبر عما فهمه بتعبير خاطىء يفهم منه المستمع خلاف مراد المتكلم، وقد تجتمع كل هذه الأمور في شخص واحد فتكون الطامة في نقله للأخبار.

http://kotob.has.it

ومن كانت فيه إحدىٰ هذه الصفات أو قريب منها، فضلاً عن جميعها، فمثله لابد من التثبت من أخباره إن كانت مهمة أو الإعراض عنها كلية إن لم يكن لها أهمية.

وفي هذا العصر، كثيراً ما ينقل أناس **فتاوى عن علماء خلاف ما أفتىٰ به العالم**، وما ذلك إلا بسبب سوء حفظهم أو سوء فهمهم وأحياناً يضاف إليهما سوء تعبيرهم، والواقع أكبر شاهد؟!!

وكذلك كثيراً ما تتناقل أخبار عن أشخاص أو هيئات لا أساس لها من الصحة، وما ذلك إلا بسبب من الأسباب الآنفة الذكر، هذا إذا حملنا المتكلم على الصدق والبراءة من تهمة الكذب.

لذلك ذكر الإمام ابن تيمية في الفتاوى (١٠/٣٨٢) قول الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ حيث يقول: «المؤمن وقاف متبين».

فالضابط في هذه المسألة: أن من عرف عنه الصدق والدين، وجودة الحفظ والفهم، وحسن التعبير والأداء، فإننا نقبل خبره دون تثبت، ومن اختلت فيه صفة من هذه الصفات، أو ما شابهها ـ مثل كلام الأقران بعضهم في بعض ـ فإنه يحتاج إلى التثبت في خبره، وخاصة إن كان الخبر يترتب عليه أمورٌ مهمة، وقد قيل: **(وما آفة الأخبار إلا رواتها)**.

وفي نقل الأخبار، سواء كانت فتاوى عن علماء، أو

http://kotob.has.it

كلام صادر من أشخاص أو هيئات، فالأفضل فيه نقل الكلام بنصه كاملاً ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، تجنباً للوقوع في بعض الآفات المذكورة آنفاً، **وفي الحديث إشارة إلى هذا المعنى**، في قوله ﷺ: «**نضر الله عبداً سمع مقالتي فحفظها ووعاها، وبلغها من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**»(١).

ففي قوله ﷺ: «**فحفظها ووعاها**» إشارة إلى الحفظ السليم والفهم المستقيم.

وفي قوله ﷺ: «**وبلغها من لم يسمعها**» إشارة إلى أداء الكلام بنصه.

وفي قوله ﷺ: «**فرب حامل فقه لا فقه له**» إشارة إلى صاحب الفهم الضعيف.

وفي قوله ﷺ: «**ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه**» إشارة إلى تفاوت الأفهام، وأن سامع الخبر قد يستنبط مما سمع ما لم يستنبطه الراوي.

وهذا الحديث من جوامع الكلام الذي أوتيه الرسول ﷺ»(٢).

---

(١) رواه أحمد، صحيح الترغيب والترهيب (٨٧).

(٢) هشام إسماعيل الصيني، منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين، المنتدى الإسلامي، لندن، ١٩٩٢، ص٥٦ ـ ٥٨.

http://kotob.has.it

١٧ ـ بالعلم واليقين تنال الإمامة في الدين

تنتشر الشبهات انتشار النار في الهشيم في الأوساط الجاهلة، فكلما كثر الجهل والجهلاء كلما كانوا أكثر استعداداً للتأثر بالشبهات، في حين أن العلم نور يستضيء به العلماء، فلا تستقر به تهمة، ولا تصدق به شبهة.

إن مشكلة كثير من الدعاة، فضلاً عن عامة المسلمين، أنهم قليلو العلم، لاسيما العلم الشرعي، لذلك عندما يطلق بعض الناس شبهة أو يرمي بتهمة تجد البلبلة تدب في صفوف هذا الصنف من الدعاة، ويصبحون في حيص بيص، لا يعرف أحدهم كيف يرد على هذه التهم، بل لا يدري كيف يقنع نفسه بزيف هذه الشبهات وأنها لا تؤثر على سلامة الطريق الذي يسلكه والمنهج الذي يتبعه، فيصاب بالحيرة والشك والارتياب.

إن هذا الدين قد عظم من مكانة العلم والعلماء حتى أن الرسول ﷺ يقول: «**فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم**»(١).

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن.

http://kotob.has.it

وقال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: «**من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح**».

وقال الحسن البصري رحمه الله: «موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدها شيء ما اطرد الليل والنهار»(١).

ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم
على الهدى لمن استهدىٰ أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه
والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش به حياً أبداً
الناس موتىٰ وأهل العلم أحياء(٢)

ويقول آخر:

تعلم فليس المرء يولد عالما
وليس أخو علم كمن هو جاهل
فإن كبير القوم لا علم عنده
صغير إذا التفت عليه الجحافل

---

(١) يوسف القرضاوي، الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤، ص٣٥ ـ ٣٦.

(٢) جاسم مهلهل، العلم بين يدي العالم والمتعلم، ص١١.

http://kotob.has.it

وأن صــغــيــر الــقــوم إن كــان عــالــمــاً
كــبــيــر إذا ردت إلــيــه الــمــحــافــل[1]

إن الذي **يستطيع أن يقف سداً منيعاً أمام الشبهات** هو ذلك الذي أنار الله قلبه وعقله بالعلم والمعرفة، لا كما يظن بعض الدعاة أن الإنسان كلما كانت له سابقة دعوية وأمضىٰ سنوات طويلة في الدعوة فإنه يكون أبعد عن التأثر بالشبهات.

إن هذا النوع من الدعاة إن صمد أمام الشبهات فإنه يصمد (غالباً) على جهل، وهذا يخشى أن يدخل إليه الشيطان من طريق ثان أو ثالث أو رابع.

نعم، إن كثيراً من الدعوات بحاجة إلى علماء وإلى طلبة علم جادين في تحصيلهم العلمي مدركين خطورة الجهل والجهلاء على الأفراد والجماعات.

وإذا قدر لك **أن تتصدىٰ للاتهامات وأن تحاور مثيري الشبهات فعليك**:

١ ـ أن تتبحر في دراسة موضوع الشبهة.

٢ ـ أن تكون مستعداً لأي سؤال.

---

(١) علي محفوظ، هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ص٤٠٧.

http://kotob.has.it

٣ ـ أن لا تناقش في موضوع لا تعرفه جيداً.

٤ ـ أن لا تدافع عن فكرة إذا لم تكن على اقتناع تام بها، **فإنك إن فعلت عرّضت نفسك للإحراج**، وأسأت إلى الفكرة التي تحملها وتدافع عنها، إذ إن أغلب الناس يميلون إلى تجسيد الفكرة المجردة في شخص حاملها، ويعتبرون انتصاره انتصاراً لها ودليلاً على أنها حق، كما يعتبرون انهزامه في الدفاع عنها انهزاماً لها ودليلاً على أنها خطأ أو باطل، واذكر دائماً قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾[(١)].

٥ ـ أن تعد مادتك العلمية إعداداً جيداً، فالإتقان من شأن المؤمنين، والله عز وجل يحب إذا عمل أحدنا عملاً أن يتقنه، ففي هذا مرضاة للّه تعالى بادىء ذي بدىء وهذا هو هدف الداعية الأول، ثم إن الإتقان يساعده على أداء مهمته في الحوار وذلك حين يعرض معلوماته عرضاً جيداً، مما يجعل سامعيه يجدون ما هو جدير بالاستماع إليه، وباختصار: الإتقان فيه مرضاة للّه عز وجل ثم هو مظهر لاحترام الإنسان لنفسه واحترامه للآخرين[(٢)].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) وحدة الدراسات والبحوث بالندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ص٢٣.

http://kotob.has.it

١٨ ـ حوار لا جدال معه

يحسن بالداعية أن يحاور ويناقش أصحاب الشبهات، ويبين لهم الحق، ويلجمهم بالحجة، ويسعىٰ إلى إقناعهم، ولكن ينبغي أن يحذر التمادي في ذلك، وأن يربأ بنفسه أن يوقعها في المراء المذموم والجدال غير المحمود.

فعن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**» ثم تلا: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾[(١)][(٢)].

وعن أبي أمامة أيضاً أن النبي ﷺ قال: «**أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»[(٣)].

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) رواه أبو داود، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (١٤٦٤)، ومعنى زعيم: أي كفيل، والربض: أي أسفل، والبيت: أي قصر.

http://kotob.has.it

«ولعل من المفيد أن يفرق المرء بين الحوار والجدال تفريقاً يوضح مدلول كل منهما. فالحوار والجدال يلتقيان في أنهما حديث أو مناقشة بين طرفين، لكنهما يفترقان بعد ذلك، فالجدل هو اللدد في الخصومة وما يتصل بذلك، ولكن في إطار التخاصم بالكلام، والجدال والمجادلة والجدل، كل ذلك ينحو منحى الخصومة ولو بمعنى العناد والتمسك بالرأي والتعصب له.

أما الحوار والمحاورة فهي مراجعة الكلام والحديث بين طرفين، ينتقل من الأول إلى الثاني ثم يعود إلى الأول وهكذا، دون أن يكون بين هذين الطرفين ما يدل بالضرورة على وجود الخصومة.

وفي القرآن الكريم ما يدل على هذا الفرق، حيث نجد الكتاب العزيز يستعمل الجدال في المواضع غير المرضي عنها أو غير المجدية، كقوله عز وجل: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[1]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨﴾[2].

وقد وردت مادة الجدال في تسعة وعشرين موضعاً في القرآن الكريم، يغلب عليها جميعاً أن تكون إما سياق عدم الرضا عن الجدال، وإما عدم جدواه.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥.

(٢) سورة الحج، الآية: ٨.

http://kotob.has.it

أما المحاورة فقد وردت مادتها في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، ويمكن أن تفهم على أنها مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين.

على أن الحوار يرد في القرآن الكريم في مواطن كثيرة جداً، وإن لم تستعمل مادته نفسها، وإنما تستعمل كلمة قال، التي وردت في الكتاب العزيز (٥٢٧) مرة.

لقد عني القرآن الكريم عناية بالغة بالحوار، وذلك أمر لا غرابة فيه أبداً، فالحوار غالباً هو الطريق الأمثل لإزالة الشبهات، ودحض الباطل، وتبيان الحق، كما هو السبيل للاقتناع الذي ينبع من أعماق صاحبه، والاقتناع هو أساس الإيمان الذي لا يمكن أن يُفرض فرضاً، وإنما ينبع من داخل الإنسان.

وفي سيرة الرسول ﷺ نماذج كثيرة متنوعة للحوار، ترد في أشكال شتى لتقدم لنا الدروس التي يحسن بنا الانتفاع منها.

حين جهر رسول الله ﷺ بالدعوة احتارت قريش وارتبكت، وفكرت ودبرت، وكان مما صنعته أنها أرسلت عتبة بن ربيعة إليه يحادثه ويفاوضه ويغريه.

يروي ابن هشام في سيرته (١/٣١٣) أن عتبة بن ربيعة جلس إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي، إنك منا حيث

http://kotob.has.it

قد علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها.

فقال رسول الله ﷺ: «**قل يا أبا الوليد أسمع**»، فقال له عتبة ما قال، حتى إذا فرغ قال له الرسول ﷺ: «**أوَقد فرغتَ يا أبا الوليد؟**» قال: نعم، قال: «**فاسمع مني**»، قال: أفعل.

فأخذ رسول الله ﷺ يتلو عليه من سورة فصلت، حتى إذا انتهى إلى الآية موضع السجدة منها (وهي الآية ٣٧)، سجد، ثم قال لعتبة: «**قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك**».

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الذي ذهب به. وطلب عتبة إليهم أن يدعوا الرسول ﷺ وشأنه، فأبوا وقالوا له: سحرك يا أبا الوليد بلسانه.

في هذه القصة أكثر من درس ـ فيما يتصل بموضوع هذا البحث ـ يحسن الوقوف عندها. فالرسول الكريم أحسن الاستماع لعتبة وقال له: «**قل يا أبا الوليد أسمع**»، فلما قال عتبة ما عنده، أعطاه الرسول ﷺ الفرصة لإضافة شيء قد يود أن يقوله ربما نسيه أو غفل عنه.

وسأله: «**أوَقد فرغت يا أبا الوليد؟**» قال: نعم، ومعنى

http://kotob.has.it

ذلك أنه أحسن الاستماع تماماً، وأعطى محدثه الفرصة ليقول من جديد دون أن يعاجله، فلما سأله ليتأكد من فراغه مما لديه بدأ التلاوة، وهذا قمة الأدب وقمة الذوق، مما يجعل الطرف الآخر تتفتح نفسه للسماع، فكانت تلك المقدمة المحمودة لما جاء بعدها وهو تلاوة آيات من الذكر الحكيم، تنتهي بسجدة، سجدها عليه الصلاة والسلام.

ثم قال لعتبة: قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك (أي وما تختار)، ففي تصرفه عليه الصلاة والسلام، أدب عال، وذوق جم، وحسن استماع منه يستدعي حسن إصغاء من عتبة، وهذا كله يجعل عتبة مستعداً للتلقي. لذلك لا غرابة أن قال له قومه بعد إذ عاد إليهم: سحرك يا أبا الوليد بلسانه.

وفي أعقاب معركة حنين (كما ذكر ابن هشام في سيرته ١٤٦/٤) نجد درساً آخر في موقف مختلف جدير بالتوقف والنظر الطويل نلقىٰ فيه الرسول الكريم ﷺ محاوراً بطريقة أخرىٰ.

وزّع الرسول ﷺ الغنائم ـ وكانت كثيرة ـ في قريش وفي قبائل العرب، ولم يعط الأنصار منها شيئاً فوجد هؤلاء في أنفسهم وقال قائل منهم: «لقي والله رسول الله قومه».

فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم، لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، فقسمت في قومك، وأعطيت

http://kotob.has.it

عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء.

قال رسول الله ﷺ: **«فأين أنت من ذلك يا سعد؟»** قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي، قال: **«فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»**.

فخرج سعد، فجمع الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: **«يا معشر الأنصار، ما قالة بلغتني عنكم، وجدة[1] وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألّف الله بين قلوبكم؟»** قالوا: بلى والله ورسوله أمنّ وأفضل.

ثم قال: **«ألا تجيبونني يا معشر الأنصار»**؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ للّه ولرسوله المن والفضل.

قال: **«أما ـ والله ـ لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أوجدتم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألفت بها قلوب قوم ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعون برسالة الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده**

---

(١) جدة: أي غضب.

http://kotob.has.it

لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: «رضينا برسول الله قسماً وحظاً».

إن في هذه الواقعة دروساً بليغة ومفيدة ينبغي تدبرها، فالرسول الكريم ﷺ لم يلم سعداً لأنه لم يرد على الأنصار الذين غضبوا، ولم يناقشه في حجته التي فيها ما فيها، بل إنه لم يسأل عن الشخص الذي قال: «لقي والله رسول الله قومه» وفيها أنه حاباهم وأعطاهم فوق حقهم بدافع العصبية، بل إنه سأل سؤالاً عاماً، ليجعل الحديث للجميع، وليواجه المشكلة من أساسها.

وبدأ بسؤاله العاتب عليهم، وثنى على ذلك بذكر الفضل الكبير الذي فاز به الأنصار إذْ أسلموا فانتقلوا من الضلال إلى الهدى، ومن الفقر إلى الغنى، ومن العداوة إلى التآلف.

ولما كان من الطبيعي أن يجول في قلوب الأنصار آنهم أيضاً أعطوا الرسول ﷺ ونصروه وصدقوه، وهذه كلها مزايا، وهي حق، قالها المصطفى عليه الصلاة والسلام نيابة عنهم، ليقر لهم بالجميل، فذكر أنهم صدقوه وقد جاءهم مكذباً، ونصروه وقد جاءهم مخذولاً، وآووه وقد جاءهم طريداً، وواسوه وقد جاءهم عائلاً.

http://kotob.has.it

وبعد أن عاتبهم من ناحية، وأرضى قلوبهم من ناحية، ختم كلامه معهم بأن أقر لهم أنهم أعلى كعباً في الإسلام، لذلك وكلهم إلى الإسلام.

ثم بيّن لهم المنة الكبرى التي فازوا بها إذ يذهب الناس بالشاة والبعير، أما الأنصار فإنهم يعودون بخاتم الأنبياء وأفضل الخلق عليه الصلاة والسلام، ثم دعا بالرحمة لهم ولأبنائهم ولأحفادهم.

لذلك لا غرابة إن وجدنا الأنصار يبكون، ويفرحون، ويقولون في غبطة وسعادة: «رضينا برسول الله ﷺ قسماً وحظاً»[1].

مما سبق يتضح لنا أن الحوار والنقاش وتفنيد الشبه والاتهامات أمر ضروري لا يجوز أن يُغفل عنه، ذلك لأن من طبيعة الناس أنهم يصدقون التهم والإشاعات، وأن كثيراً منهم لا يحكِّمون عقولهم تجاه هذه الشبهات ولا يتبعون المنهج الصحيح في التثبت والتبين، كما أن «العيار الذي لا يصيب يدوش» كما في المثل العامي.

لذلك لا يليق بالدعاة ولا بالدعوات المخلصة أن تهمل الرد على هذه الشبهات وتفنيدها، لأن هذا الإهمال غالباً ما تكون له آثار سلبية على نفوس الأتباع، فضلاً عن تأثيرها السلبي على المؤيدين وعامة الناس، كما أن في ذلك طمساً

---

(١) وحدة الدراسات والبحوث بالندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ص٩ ـ ١٤.

http://kotob.has.it

للحق وإظهاراً للباطل، هذا بالإضافة إلى أن ذلك مخالفاً للمنهج القرآني، ومخالفاً كذلك لمنهج الرسول ﷺ وحواراته المتواصلة ودحضه المستمر للشبهات والاتهامات.

بل إنه في كل عصر من العصور الإسلامية انبرىٰ نفر من فطاحلة العلماء لأمثال هذه الشبهات فدحضوها وأبانوا للأمة زيفها وهشاشتها، فانبرىٰ الإمام أبو حنيفة لشبهة الزنادقة والملحدين، وتصدىٰ الإمام أحمد لشبهة خلق القرآن التي أثارها المعتزلة، وتعلم الإمام ابن تيمية علم الكلام ليرد على أقاويل أصحابها وشبههم.

وهكذا ينبغي أن يقف ثلة من العلماء ليتصدوا لهذه الشبهات قبل أن تنتشر بين الناس فيصدقها القريب والبعيد، وتكون الدعوة والدعاة في موضع المدافع الضعيف، وفي حالة لا يحسدون عليها.

نعم، إن الأصل في التعامل مع الشبهات هو الرد عليها لا السكوت عنها، لا كما يعتقد كثير من الدعاة أن الأصل السكوت والتجاهل، بل ويتغنىٰ بعضهم بقول الشاعر:

ولو أن كل كلب عوى ألقمته حجراً
لأصبح الترب مثقالاً بدينار

ويردد بعضهم قول الإمام مالك: «ما كان للّه دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل».

http://kotob.has.it

إن استخدام مثل هذه النصوص والقياس عليها ـ أظنه ـ قياس فاسد في غير محله، وإلا لما كان الرد على الشبهات والاتهامات أمر شائع ودارج وكثير جداً في نصوص القرآن والسنة وفي هدي السلف رضوان الله عليهم.

ولكن يجدر التنويه إلى عشرة ضوابط رئيسة ينبغي الانتباه إليها عند الإقدام على الرد على الشبهات، وهي كما يلي:

١ ـ الإخلاص للّه عز وجل في الرد، وتصفية النية من الشوائب كحب السمعة والرياء والرغبة في الانتصار وغيرها من أمراض القلوب المحبطة للأعمال والمجلبة لغضب الرب سبحانه وتعالى، وهنا يمكننا أن نستشهد بمقالة الإمام مالك رحمة الله تعالى عليه: «ما كان للّه دام واتصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل».

٢ ـ أن لا يؤدي الرد إلى منكر أكبر من السكوت، وهذا الأمر يجتهد فيه أهل العلم والفقه والخبرة من العلماء والدعاة.

٣ ـ أن يكون الرد علمياً، منطقياً، مدللاً بالشواهد والأدلة والبراهين، بعيداً عن الكلام العاطفي الذي لا يستند إلى دليل والذي لا يسمن ولا يغني من جوع، فقد ملّ الدعاة والناس أجمعين أمثال هذه الردود التي يُضحك بها على الذقون والتي ربما

http://kotob.has.it

تعمق الشبهة وتزيد من رسوخها بدلاً من أن تدحضها. لذا ينبغي أن يقوم أهل العلم والمنطق والحجة بالرد على هذه التهم، وليس بالضرورة أن يكون هؤلاء من القيادات أو من ذوي السابقة الدعوية، فلكل فن أهله ورجاله.

٤ ـ أن لا ينشغل جميع الدعاة في الرد على هذه الشبه والاتهامات، وإنما يكفي أن ينبري لذلك نفر من العلماء والدعاة، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾[1].

٥ ـ أن لا تنشغل الدعوة بهذه الردود عن أهدافها التي رسمتها لها، إذ إن أعداء الله حريصون على جر الدعاة والدعوات إلى معارك جانبية وحروب كلامية لينصرفوا بهم عن تحقيق أهدافهم، وهنا تكمن الخطورة، وربما كان هذا هو السبب الرئيس الذي جعل كثير من الدعاة يرى أن السكوت أولىٰ من الرد، والصواب في ذلك هو الاعتدال، والله أعلم.

٦ ـ إن كل شبهة ليس لها أثر على الدعوة أو الدعاة

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

http://kotob.has.it

فإهمالها أولىٰ من الخوض في الرد عليها، لأنه لو فتحنا هذا الباب على مصراعيه لما انغلق، ولأصبح الدعاة في حيص بيص.

٧ ـ أن لا يؤدي الرد والحوار إلى المراء المذموم والجدال غير المحمود، بل يكون الرد علمياً وواضحاً، فإذا وضح الأمر فلا يحسن التمادي في الرد والدخول في جدال مذموم، فالسكوت هنا أولىٰ.

٨ ـ أن يكون هدف الرد هو تبيان الحق والصواب، ولذلك يحسن الاعتراف بالخطأ وعدم تبرير الباطل والانحراف، فالحق أحق أن يتبع، والداعية طالب حق لا طالب شهرة.

٩ ـ أن يكون الرد بعيداً عن الإسفاف والشتائم والغمز واللمز، وبمعنى آخر أن يكون الرد عفيفاً مصداقاً لقول الرسول ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»[1].

١٠ ـ أن يكون الذي يتولى عملية الرد قادراً على رد الشبهة وتفنيدها ودحضها، بمعنى أن يكون ذا أهلية تؤهله من النجاح في الرد المقنع.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة.

http://kotob.has.it

١٩ ـ فدعه إلى يوم القيامة ينبح

رغم قناعتنا بأهمية الرد على الاتهامات ودحض الشبهات وأن هذا هو الأصل في مواجهة الشبهات، إلا أن ذلك لا يعني أن ننجرف وراء الردود فيكون ذلك هو شغلنا الشاغل، وهل يريد المتربصون إلا أن يصلوا بنا إلى هذا الأمر؟

لذا نقول: إذا لم تكن الشبهة مؤثرة على الدعوة أو الدعاة، وإذا كان الرد يجر إلى منكر أشد، أو كان يؤدي إلى مراء مذموم، أو كان يشغل (بوضوح) عن أهداف الدعوة الرئيسة وأعمال الدعاة المهمة، أو لم يكن منطلقاً على أساس من تقوىٰ الله وطلب الحق، فإن السكوت هنا أولىٰ وأجدىٰ، وهنا يحق لنا أن نردد قول القائل:

إذا الكلب لا يؤذيك إلا بنبحه
فدعه إلى يوم القيامة ينبح

وقول الآخر:

ولو أن كل كلب عوى ألقمته حجراً
لأصبح الترب مثقالاً بدينار

http://kotob.has.it

يقول صاحب (العوائق): «ولقد أسرف بعضهم في الابتعاد عن هذه النظرة (أي قبول أحسن ما عملنا والتجاوز عن سيئاتنا) فأحصىٰ ما يظنه من أخطائنا مما صدر عن آحاد من دعاة حركتنا، حاولوا الاجتهاد، فبعض أصاب وبعض أخطأ.

ولو أردنا الاستقصاء في الرد على الشبهات التي يوردها المحصون، لوقعنا في المتاهة النفسية التي تراد لنا، ويكون ثمة انشغال عن وجوه النفع التي نحن ماضون في جلبها وتحصيلها كل يوم.

ولسنا نضيق صدراً بنقد يوجه لنا، ولا ندعي أن الله قد حكر لنا الصواب، لكننا ننكر الخلفية المتوترة لمثل هذا النقد، الشبيهة بالفتنة.

والأساس في ردنا لكل ملاحظة وجهت وتوجه لنا، أن الناقدين يغفلون مناقبنا وجمالنا وحسننا، ويجردون الأخطاء تجريداً عما صاحبها من الإصابة وقارنها من البذل»[١].

ويقول الإمام الشافعي:

يخاطبني السفيه بكل قبح
فأكره أن أكون له مجيبا

(١) محمد أحمد الراشد، العوائق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١، ص٣١٩.

http://kotob.has.it

يـــزيـــد ســـفـــاهـــة فـــأزيـــد حـــلـــمـــاً
كـــعـــود زاده الإحـــراق طـــيـــبـــا

إذا نـــطـــق الـــســـفـــيـــه فـــلا تـــجـــبـــه
فـــخـــيـــر مـــن إجـــابـــتـــه الـــســـكـــوت

فـــإن كـــلـــمـــتـــه فـــرجـــت عـــنـــه
وإن خـــلـــيـــتـــه كـــمـــداً يـــمـــوت

وحكي أن رجلاً من عامة الناس شتم الأحنف بن قيس مع عظم قدره فلم يرد عليه ومشى في طريقه، فمشى الرجل وراءه وهو يزيد في شتمه، فلما قرب الأحنف من قبيلته وقف وقال للرجل: إن كان قد بقي في نفسك شيء فقله كي لا يسمعك أحد في الحي فيؤذيك[١].

وشتم رجل أبا حنيفة وهو في درسه وأكثر، فما التفت إليه ولا قطع كلامه، ونهى أصحابه عن مخاطبته، فلما فرغ وقام تبعه الرجل إلى باب داره، فقام على بابه وقال للرجل: هذه داري، إن كان بقي معك شيء فأتمه حتى لا يبقى في نفسك شيء، فاستحيا الرجل وانصرف مخذولا[٢].

«في بعض الأحيان يجد الإنسان أن شقة الخلاف بينه

---

(١) علي فكري، السمير المهذب، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩، ص٧٦.
(٢) المرجع السابق، ص٨٦.

http://kotob.has.it

وبين الطرف الآخر كبيرة جداً، وأن هناك اختلافاً على أمور أساسية عدة لا يسمح الوقت بمناقشتها، أو تكون مناقشتها مع هذا الشخص بالذات تضييعاً للوقت، وتبديداً للجهد، عند ذلك يكون من الأفضل إقفال المناقشة بطريقة لبقة ذكية تشعر أن الطرف الأول لم ينسحب عجزاً، أو يترك النقاش هزيمة.

كما ينصح بإقفال المناقشة إذا لم يكن الشخص الآخر جاداً، باحثاً عن الحقيقة، أو كان دون المستوى المطلوب للخوض في الموضوع محل النقاش.

تحاور داعية يعمل مدرساً مع زميل له شيوعي يهاجم حجاب المرأة بشدة، ويثير حوله العديد من الشبهات، ولما أحس الداعية أن التباين في وجهات النظر أبعد من قضية الحجاب لأنه خلاف في الأسس والمنطلقات، رأى قفل المناقشة بطريقة حكيمة دون أن يظهر أن ذلك بسبب عجز.

قال له الداعية: أنت مدرس رياضيات، فأرجو أن تجيبني عن السؤال التالي: هل يمكن دراسة معادلة من الدرجة الثالثة، أو حل مسألة رياضية معقدة دون الاتفاق على الأساسيات الأولىٰ في الرياضيات؟ قال له: بالطبع لا.

قال الداعية: كذلك حالنا مع الإسلام، لا يمكن أن نناقش قضية الحجاب في الإسلام إلا إذا اتفقنا على الأساسيات الأولىٰ وهي الإقرار أن الله موجود، وأن

http://kotob.has.it

محمداً ﷺ صادق أمين، وأنه بعث إلينا بالإسلام وكتابه القرآن، فإذا أقررت معي بذلك كله، كان بوسعي أن أناقش معك بقية الأمور ومنها الحجاب»[1].

ويقول الشافعي:

وجدتُ سكوتي متجراً فلزمتُه
إذا لم أجد ربحاً فلستُ بخاسر
وما الصمت إلا في الرجال متاجرٌ
وتاجرُهُ يعلو على كل تاجر[2]

إن للرد على الشبهات هدفاً، كما أن للسكوت هدفاً، وهدف الرد أو السكوت هو تبيان الحق وإظهاره ودحض الشبهات وطمس آثارها، ولذلك ينبغي للدعاة أن ينظروا في أي الأمرين (الرد أو السكوت) يحقق لهم هذه الأهداف، وعندها يقررون ما يرونه مناسباً لهم ولدينهم ولدعوتهم.

وصدق الإمام الشافعي حينما قال:

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم
إن الجواب لباب الشر مفتاح

---

(١) وحدة الدراسات والبحوث بالندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض، ص٣٢.

(٢) محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الشافعي، جمعه وعلّق عليه محمد عفيف الزعبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣، ص٤٦.

http://kotob.has.it

والصمت عن جاهل أو أحمق شرف
وفيه أيضاً لصون العرض إصلاح
أما ترى الأسد تخشى وهي صامتة
والكلب يخسى لعمري وهو نباح[1]

(١) المرجع السابق، ص٣٣.

http://kotob.has.it

٢٠ ـ أربى الربا

إن الناظر إلى الشبهات التي تثار على الدعوة الإسلامية يجد أن كثيراً منها متعلق بأشخاص الدعاة والمصلحين، إذ إنه بإسقاط هؤلاء القادة والقدوات من أعين الناس ـ لاسيما الأتباع ـ تسقط دعواتهم ويندرس تأثيرهم.

ولذلك حرص المشركون من قريش على إثارة الشبهات حول شخص النبي ﷺ، فقالوا عنه ساحر وكاهن وشاعر . . إلخ .

وهذا الصنيع فعله المغرضون من المستشرقين وغيرهم، لما أرادوا هدم هذا الدين وتزييفه جاؤوا إلى كبار رواة الحديث، فألصقوا بهم التهم، لينفروا الناس عنهم، وليرفضوا ما حملوه من حديث الرسول ﷺ، فيضيع الدين وتشوه تعاليمه، لذا اتهموا عائشة رضي الله عنها في عرضها وأبا هريرة رضي الله عنه في عقله، وكفروا جل الصحابة رضوان الله عليهم.

إن التعرض لأعراض المسلمين، لاسيما الدعاة

http://kotob.has.it

والمصلحين، لهو أمر خطير عند الله تعالى، والتجرؤ عليه من شأنه أن يوجب غضب الله وسخطه، كما أنه دليل على قلة الورع والخوف من الله تعالى.

ولو اتقى الإنسان الله تعالى لانشغل بعيوبه وما أكثرها، ولعف لسانه وحسن ظنه بإخوانه، ولسعىٰ إلى التوجيه والإصلاح والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة دون تجريح يوغر الصدور ويصد عن الحق.

إن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يتركا مجالاً للريبة أو الشك في حرمة الخوض في أعراض المسلمين، لذا يقول المولى عز وجل: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**»[2].

وقد قرن النبي ﷺ حرمة الأعراض بحرمة يوم عرفة من الشهر الحرام في البيت الحرام، وذلك فيما رواه أبو بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن دماءكم وأموالكم**

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) رواه مسلم.

http://kotob.has.it

وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلغت»[1].

بل جاءت الأحاديث ببيان أشد مما سبق، فجعلت الخوض في عرض المؤمن أشد من أن ينكح الرجل أمه، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الربا اثنان وسبعون باباً، أدناها مثل إتيان الرجل أمه، وإن أربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه»**[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشر من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإن من اتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله»**[3].

وقد كان السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ من أشد الناس بعداً عن الخوض في أعراض المسلمين وعن غيبتهم.

ومن ذلك ما قاله الإمام البخاري رحمه الله تعالى: سمعت أبا عاصم يقول: «منذ أن عقلت أن الغيبة حرام ما اغتبت أحداً قط»[4].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ١٨٧.

(٣) رواه الترمذي وصححه الألباني في صحيح الترمذي ٢/٢٠٠.

(٤) التاريخ الكبير ٤/٣٣٦.

http://kotob.has.it

ويقول بكر بن منير: سمعت أبا عبدالله البخاري يقول: «أرجو أن ألقىٰ الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً».

قال الإمام الذهبي: «قلت: صدق رحمه الله، ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل عَلِم وَرعه في الكلام في الناس، وإنصافه فيمن يضعفه، فإنه أكثر ما يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر، ونحو هذا.

وقلّ أن يقول: فلان كذاب، أو كان يضع الحديث. حتى إنه قال: إذا قلت: فلان في حديثه نظر، فهو متهم واه، وهذا معنى قوله: لا يحاسبني الله أني اغتبت أحداً، وهذا والله غاية الورع»[(١)].

وقال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعت البخاري يقول: «ما اغتبت أحداً قط منذ علمت أن الغيبة تضر أهلها»[(٢)].

وقد عمل السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ على محاسبة أنفسهم إذا اغتابوا أحداً من الناس، فهذا ابن وهب يقول: «نذرت أني كلما اغتبت إنساناً أن أصوم يوماً، فأجهدني، فكنت أغتاب وأصوم، فنويت أني كلما اغتبت إنساناً أن

---

(١) شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠، ص٤٣٩ ـ ٤٤١.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤١.

http://kotob.has.it

أتصدق بدرهم، فمن حب الدراهم تركت الغيبة».

قال الإمام الذهبي: «هكذا والله كان العلماء وهذا هو ثمرة العلم النافع»(١).

بل إن المغتاب في الحقيقة يقدم حسناته إلى من يغتابه، حتى إن عبدالرحمٰن بن مهدي ـ رحمه الله ـ قال: «لولا أني أكره أن يُعصىٰ الله، لتمنيت أن لا يبقى أحد في المصر إلا اغتابني! أي شيء أهنأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته لم يعمل بها»(٢).

وأما ما يفعله بعض من ينتسب إلى الدعوة في هذا الوقت من غيبة الآخرين بحجة التقويم والإصلاح، فإنه ينبغي لهم قبل أن يتكلموا في غيرهم أن يتدبروا عدة أمور:

أولاً: يسأل نفسه، ما هو الدافع الحقيقي لكلامه في غيره؟ هل هو الإخلاص والنصح للّه ورسوله وللمسلمين؟ أم هو هوى خفي أو جلي؟ أم هو حسد وكراهية له؟ فإنه كثيراً ما يقع الأشخاص في غيبة غيرهم بسبب أحد الأمور المذمومة السابقة، ويظن أن دافعه هو النصح وإرادة الخير، وهذا مزلق نفسي دقيق قد لا ينتبه له كثير من الناس إلا بعد تفكر عميق يصحبه إخلاص وتجرد للّه تعالى.

---

(١) المرجع السابق، ج ٩، ص ٢٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

http://kotob.has.it

ثانياً: ينظر في هذا الدافع الذي دفعه للكلام في أخيه المسلم، هل هو من الحالات التي تجوز فيها الغيبة أم لا؟

ثالثاً: أن يتأمل كثيراً قبل أن يقدم على الكلام في الآخرين: ما هو جوابي عند الله تعالى يوم القيامة إذا سألني: يا عبدي فلان لمَ قلت في فلان كذا وكذا؟ وليتذكر أن الله تعالى يقول: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1] وقد قال ابن دقيق العيد رحمه الله: أعراض الناس حفرة من حفر النار وقف عليها المحدثون والحكام[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥.

(٢) هشام إسماعيل الصيني، منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين، المنتدى الإسلامي، لندن، ١٩٩٢، ص١٧ ـ ٢٠.

http://kotob.has.it

ختاماً

في ختام هذا الجهد المتواضع أسأل الله تعالى أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، مثقلاً لميزان حسناتي يوم القيامة، كما أسأله أن يكون صائباً وفق ما يحبه ربنا ويرضاه، إذ لا يقبل الله تعالى من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً.

وأود أن أؤكد أن هذا الكتاب ما هو إلا محاولة، لجمع شمل هذا الموضوع، أرجو أن تكون نافعة، وأن تكون قليلة الزلل والانحراف.

وما كان في هذا العمل من صواب فهو من الله وحده وبتوفيقه، وما كان فيه من خطأ أو زلل فمن نفسي ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منهما.

أسأل الله أن يكون عملي هذا لا يخرج عن دائرة الاجتهاد، فإن أصبت فلي أجران، وإن أخطأت، ولست مبرءاً من الخطأ، فلي أجر واحد.

إن حبنا لإخواننا المسلمين، لاسيما أهل الدعوة والعمل

http://kotob.has.it

الإسلامي، هو الذي دفعنا لنكتب في هذا الموضوع.

لذا أتضرع إلى الله تعالى وأسأله أن يعين إخواننا الدعاة على تقبل هذه الوصايا بصدر رحب، دون تعصب لمذهب أو فئة، كما أرجو من أحبتنا أن يغفروا لي خطئي أو سوء تعبيري، فالله يعلم أنه لا حب في قلبي إلا لهم، ولا موالاة إلا لأمثالهم، كما لا بغض في قلبي إلا لأعدائهم، ولا براءة إلا لمن كاد لهم.

وأخيراً أسأل الله أن يجمعنا على الخير دائماً، وأن يوحد صفوفنا، وأن يكبت أعداءنا، وأن يثلج صدورنا برؤية اليوم الذي يعز فيه الإسلام وأهله، آمين، آمين.

والحمد لله رب العالمين

أبو عبدالله

د. علي الحمادي

http://kotob.has.it

أهم المراجع

- أحمد بن تيمية، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، مكة المكرمة، ١٤٠٤هـ.
- أحمد بن حنبل، كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.
- عبدالكريم زيدان، أصول الدعوة، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٩٨١.
- جاسم محمد مهلهل، للدعاة فقط، دار الدعوة، الكويت.
- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار الدعوة، أستانبول، ١٩٨٩.
- ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.
- عبدالحميد البلالي، فقه الدعوة في إنكار المنكر، دار الدعوة، الكويت.
- وحدة الدراسات والبحوث بالندوة العالمية للشباب الإسلامي، أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض.
- من أوراق مجلة المرابطون، ثلاث رسائل في الدعوة، دار الفتح.
- يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، دار الصحوة.
- دايل كارنيغي، كيف تكسب الأصدقاء، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٠.

http://kotob.has.it

- هشام إسماعيل الصيني، منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين، المنتدى الإسلامي، لندن، ١٩٩٢.
- عصام أحمد البشير، أضواء على الأصول العشرين، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ١٩٩٠.
- حسن البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.
- أبو حامد محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٢.
- هاشم محمد، في ضوابط السلوك والمنجيات، ج١، مكتبة دار البيان، الكويت، ١٩٨٩.
- علي صالح الهزاع، ديوان الحماسة والفضائل، القسم الثاني، مكتبة السندس، الكويت، ١٩٩٣.
- سالم البهنساوي، شبهات حول الفكر الإسلامي المعاصر، الوفاء للطباعة والنشر.
- عبدالله الصالح، كيف نعيش رمضان، دار الوطن للنشر، الرياض، ١٤١١هـ.
- أبو علي القالي، الأمالي، ج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، غير محدد سنة الطبع.
- يوسف القرضاوي، الرسول والعلم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٤.
- جاسم مهلهل، العلم بين يدي العالم والمتعلم.
- علي محفوظ، هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، غير محدد سنة الطبع.
- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢.
- شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٠.

http://kotob.has.it

- محمد أحمد الراشد، العوائق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١.
- محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦.
- أحمد بن قدامة المقدسي، مختصر منهاج القاصدين، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٩٧٨.
- محمود الطحان، أصول التخريج ودراسة الأسانيد، دار القرآن الكريم، بيروت، ١٩٧٩.
- عبدالباقي محمد حسين، ديوان سيد قطب، دار الوفاء، مصر، ١٩٨٩.
- يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣.
- محمد بن إدريس الشافعي، ديوان الشافعي، جمعه وعلّق عليه محمد عفيف الزعبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٣.
- نايف معروف، طرائف ونوادر من عيون التراث العربي، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٧.
- علي فكري، السمير المهذّب، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩.
- مصطفى السباعي، هكذا علّمتني الحياة، القسم الأول، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٤.
- محمد الغزالي، خلق المسلم، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧.
- أحمد بن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
- أحمد شوقي، الشوقيات، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥.
- بكر بن عبدالله أبو زيد، الرد على المفترين على سيد قطب، مجلة الإصلاح، العدد ٣٠٠، بتاريخ ١٩٩٤/٨/١١، دبي.

http://kotob.has.it

إصدارات للمؤلف

١ ـ **أمسك عليك هذا** ـ سلسلة قواعد وفنون التعامل مع الآخرين (١).
٢ ـ **الكنز الذي لا يكلف درهماً** ـ سلسلة قواعد وفنون التعامل مع الآخرين (٢).
٣ ـ **لا تكن شبحاً** ـ سلسلة قواعد وفنون التعامل مع الآخرين (٣).
٤ ـ **لا تكن كصاحب الجباعة** ـ سلسلة قواعد وفنون التعامل مع الآخرين (٤).
٥ ـ **وإذا غلا شيء علي تركته** ـ سلسلة قواعد وفنون التعامل مع الآخرين (٥).
٦ ـ **صنعة العظماء** ـ كيف تصبح نجماً اجتماعياً ـ سلسلة قواعد وفنون التعامل مع الآخرين (٦).
٧ ـ **٢٠٠ حكمة قيادية ووصية إدارية** ـ سلسلة حكم ووصايا إدارية (١).
٨ ـ **شرارة الإبداع** ـ سلسلة الإبداع والتفكير الابتكاري (١).
٩ ـ **مبدعون عبر التاريخ** ـ سلسلة الإبداع والتفكير الابتكاري (٢).
١٠ ـ **حقنة الإبداع** ـ طرق الإبداع الثمان ـ سلسلة الإبداع والتفكير الابتكاري (٣).
١١ ـ **(٣٠) طريقة لتوليد الأفكار الإبداعية** ـ سلسلة الإبداع والتفكير الابتكاري (٤).
١٢ ـ **صناعة الإبداع** ـ سلسلة الإبداع والتفكير الابتكاري (٥).

http://kotob.has.it

١٣ ـ **استمتع مع الإبداع** ـ تدريبات وتمارين إبداعية ـ سلسلة الإبداع والتفكير الابتكاري (٦).
١٤ ـ **نعم. . إنه الطريق إلى نعم** ـ سلسلة الحوار والتفاوض والاتفاق (١).
١٥ ـ **التغيير الذكي** ـ سلسلة إدارة التغيير (١).
١٦ ـ **الطريق إلى لا** (١٥ طريقة للتغيير) ـ سلسلة إدارة التغيير (٢).
١٧ ـ **مقاومة المقاومة** (٣٠ طريقة لريادة التغيير وترويض المقاومة) ـ سلسلة إدارة التغيير (٣).
١٨ ـ **إدارة الاجتماعات** ـ سلسلة مهارات إدارية (١).
١٩ ـ **555 طريقة ووصية لتصبح مدرباً ناجحاً وخطيباً مؤثراً ومتكلماً بارعاً** ـ سلسلة الإلقاء والتدريب والخطابة (١).
٢٠ ـ **333 تقنية للتدريب والإلقاء المؤثر** (فن استخدام الأساليب والوسائل التدريبية الحديثة) ـ سلسلة الإلقاء والتدريب والخطابة (٢).
٢١ ـ **السهل الممتنع** ـ مهارات التفاوض وفنون الحوار والاتفاق ـ سلسلة الحوار والتفاوض والاتفاق (٣).
٢٢ ـ **وكذلك السهل الممتنع** ـ ٥٢ تكتيك تفاوضي ـ سلسلة الحوار والتفاوض والاتفاق (٤).
٢٣ ـ **مساحة للتأمل**.
٢٤ ـ **وأيضاً مساحة للتأمل**.
٢٥ ـ **في قفص الاتهام** ـ منهجية التعامل مع الشبهات وقواعد دحضها (١).
٢٦ ـ **خفافيش أعماها النهار** ـ منهجية التعامل مع الشبهات وقواعد دحضها (٢).
٢٧ ـ **ولا تهنوا في ابتغاء القوم** ـ منهجية التعامل مع الشبهات وقواعد دحضها (٣).

http://kotob.has.it

الدعوة إلى الله تعالى شأنها عظيم، وأثرها جسيم، بها تتحقق عبودية الله في أرضه، وبها يمكن الله لدينه وأوليائه، وبها يحق الحق ويبطل الباطل، بل بها يرفع الله سخطه وغضبه عن خلقه.

هذه الدعوة تتعرض، وهي تشق طريقها، لتحديات كبيرة ولفتن لا تعد ولا تحصى، فتارة تتهم بالنقص والقصور، وتارة تُرمى باستغلال الدين لمصالحها الخاصة، وكثيراً ما تُقذف بالتطرف والإرهاب والرجعية، وأحياناً يجرح أصحابها بالانحراف الفكري أو العقدي أو الحضاري.

هذه التهم وتلك الشبهات هي أسلحة فتاكة قصمت ظهر أمتنا على مر تاريخها الإسلامي، ولا بد أن ينبري لها نفر من الدعاة في كل عصر، فدعوة الله أكرم من أن تترك للقاصي أو الداني يفعل بها ما يشاء ويتهمها بما يشاء ثم يقف الدعاة متفرجون لا يتفوهون بكلمة ولا يحركون ساكناً.

أما لله والإسلام حق
يدافع عنه شبان وشيبُ
فقل لذوي البصائر حيث كانوا
أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

لقد حاولت في هذه الكتب الثلاثة تسليط الضوء على خمسة وستين قاعدة يمكن بها الوقوف أمام هذه الشبهات ودحض تلك التهم بأسلوب علمي منهجي، راجياً من المولى عز وجل القبول والتوفيق والسداد.



د. علي الحمادي

- بكالوريوس في الهندسة الصناعية من الولايات المتحدة الأمريكية.
- دكتوراه في التطوير الإداري من بريطانيا.
- مؤسس ورئيس مجلس إدارة مركز التفكير الإبداعي، بدولة الإمارات العربية المتحدة.

http://kotob.has.it